

التوبة
أو
الاستغفار بالأذرع المصنوعة

الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني



0098435



Bibliotheca Alexandrina

الدار الإسلامية
بيروت - لبنان

التَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
أو
الِاسْتِغَاثَةَ بِالْأَرْوَاحِ الْقَدِيسَةِ

الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني

التوبة

أو
الإستغانة بالأرواح المقدسة

الدارالاسلامية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م



كورنيش المزرعة - بناية الحسن سنتر - طباق ثاني - هاتف: ٨١٦٦٢٧

ص. ب.: ١٤/٥٦٨٠ - تلکس: ٢٣٢١٢ عندير

فزع ثاني: حارة حريك - شارع دكاش - هاتف: ٨٣٥٦٧٠ - ص. ب.: ٢٥/٢٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ للتوحيد والوحدانية من خلال الوجهة العقائدية والعملية ، مراتب ودرجات ، وقد قام علماء « علم الكلام » بتقديم الدراسات والأبحاث حولها ، وتشكل مسألة « التوحيد في العبادة » واحدة من مواضيعها ، حيث أن الهدف من بعثة الأنبياء كان الدعوة إلى عبادة الله تبارك وتعالى ، وحده ومكافحة الشرك .

ويعتبر القرآن الكريم ، التوحيد في العبادة القاسم المشترك والهدف المتحد لكل المبعوثين السماويين ، ويقول في كتابه الكريم : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۝ (١) .

واعتبر القرآن الكريم ، الوحدانية : الأصل المشترك وقاعدة لجميع الشرائع السماوية . كما يقول :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ

(١) سورة النحل : الآية ٣٦ .

إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴿١﴾ .

إنَّ الوحدانية وتحريم عبادة أي مخلوق غير الله عزَّ وجلَّ ، مسألة قبلنها جميع الفرق الإسلامية ، وليس لأحد ما يعارض ذلك ، حتى أنه إذا عارض أي شخص هذا المبدأ ، فإنه يخرج عن نطاق الحركة الإسلامية ، ولا يعد في عداد المسلمين .

إنَّ ما يدور في هذه الدراسة هو الإجابة على التساؤلات التي تثيرها اليوم فئة ، تروم من وراء ذلك تشويه الأذهان والعقول ، وإن هذه التساؤلات الخمسة عبارة عن :

١ - كيف تتم الإستغاثة بغير الله تعالى والإستمداد والطلب منه ؟

٢ - هل يجوز طلب الشفاعة من الرسل والأنبياء المعصومين ، أم لا ؟

٣ - ما هي الوسيلة التي يتخذها الأولياء لمسألة حاجة من الله سبحانه ، مثلاً عندما نقول « اللهم إني أتوسل بنهيك إليك » وأية أحكام لمثيلاتها ؟

٤ - كيف يتم الحلف على الله بحق الأولياء ، لدى طلب الحاجة من الله تبارك وتعالى ؟

٥ - ما هو الحلف بغير الله ، كالقسم على القرآن والنبي والإمام ، من خلال وجهة النظر الشرعية ؟

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٣ .

إن هذه المواضيع الخمسة يمكن دراستها وتحليلها استناداً إلى وجهتي نظرائتين :

١ - فهل إن الإستمدادات هذه ، ومسألة الشفاعات ، والتوسل إلى الأولياء الألهيين ، والحلف على الله بحق هؤلاء هو عبادة غير الله ؟ وهل هو مناقض لمبدأ « الوجدانية » وعدم عبادة غيره ، أم لا ؟

وبالأحرى ، لو قال امرئ : يا أيها النبي الجليل ، لب طلبنا واشف مريضنا ، واشفع بحقي ، و . . . إلخ ، فهل أنه بطلبه وحديثه هذا قد عبد النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - أم لا ؟ مثلما يعبد جميعنا . أو أن مواضيع كهذه لا تعتبر أساساً لعبادة غير الله تعالى . وهل هي مفيدة للإيمان أم لا ؟ وهل هي جائزة أم غير جائزة ؟ وهل هي أمور مستقلة بذاتها ؟

إننا لم نتطرق في بحثنا هذا إلى رأي كهذا ، لأن السبر في هذا المضمار يستوجب أن نستشف مفهوم « العبادة » من القرآن والحديث واللغة ، ومن ثم نقيس هذه الأفعال بالقياس الذي نحصل عليه من خلال هذه الأسانيد ، لكي يتجلى بذلك أنه هل تعتبر هذه الأنواع من الإستنجات والطلبات عبادة أم لا ؟ وهل تحتسب من أقسام عبادة غير الله أم لا ؟

لقد تناولنا هذا الموضوع بإسهاب في كتاب « أسس التوحيد حسب وجهة نظر القرآن » ، لهذا فلا داع لأن نتطرق إليه ثانية . ويستطيع الراغبون بغية الإستفاضة ، العودة إلى الكتاب الأنف الذكر^(١) .

(١) أسس التوحيد حسب وجهة نظر القرآن ، ص : ٣٨٠ - ٤٩٠ .

ونستطيع أن نقول باختصار ، إن ما تم إثباته بجلاء ، هو كون أن هذه الأعمال ليست من مصداقيات العبادة ، حيث أن عبادتها هو نوع من الخضوع اللغوي ، وفعل إزاء شخص نؤمن بألوهيته وربوبيته^(٢) ، وبالأحرى أن نعتبر طرف السؤال إلهاً سواء كان واقعياً أم خيالياً ، ومن ثم نمثل أمامه ، وأن نعتبره دوماً عبداً لله والأحوج إليه ، وآلاً نتصوره منفصلاً في العمل والفعل .

ففي هذه الحالة لا يعتبر أي نوع من الخضوع سواء كان لفظياً أو عملياً ، عبادة . وإن لم يعتبر عبادة ، فهل هو مفيد أم لا ؟ جائز أم حرام . . . وهذا موضوع آخر سوف نتطرق إليه خلال هذه الدراسة .

٢ - وإن ثبت كون إن هذا النوع من الأعمال ليس من أقسام عبادة غير الله ، حينها يبقى متسعاً للحديث ، ويتوجب تقصي حقيقة ، هل أن هذه الأعمال جائزة في الشرع (رغم أنها ليست عبادة غير الله) أم لا ؟

فقد يحتمل أن لا يعتبر عبادة غير الله ، بيد أنه يحرم كبدعة ، وذلك لأسباب وعوامل معينة .

إن ما نتطرق إليه في هذه الدراسة يتعلق بتحليل المواضيع الخمسة ، انطلاقاً من خلال وجهة النظر الثانية ، وهل أن القيام بأعمال كهذه مشروع وجائز أم لا ؟ ولو افترضنا أنه مشروع ، فهل هو محدود ومفيد أم لا ؟ !

قارئ العزيز ، إنك سوف تتلمس في هذا الكتاب الذي يستريح

(١) العبادة هو الخضوع لشيء على أنه إله أو رب .

بين أناملك ، مشروعية هذه الأمور وفي فصول خمسة ، وإن نصوص
القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، سوف تجليان كون أن الإسلام
اعتبر ذلك أمراً مفيداً ونافعاً . ومن الله التوفيق .

جعفر السبحاني

٢٠ جمادى الآخر ١٤٠٣

القسم الأول

الإستعانة بأولياء الله تعالى أو طلب الدعاء والحاجة

إنّ مسألة طلب شيء ما من « أولياء الله تعالى » تتم بأشكال مختلفة ، نشير إليها فيما يلي :

١ - أن نسأل الإنسان الحي بأن يعيننا في تشييد دار ، أو أن يسقينا من إناء الماء الذي في متناول يديه .

٢ - أن نسأل الإنسان الحي بأن يدعو الله تبارك وتعالى ، ويستغفره لنا .

إن هاتين الصورتين تشتركان معاً ، في أن المطلوب هو أمر طبيعي ، والمطلوب منه قادر على تحقيقه ، بيد أن الاختلاف بينهما يكمن في أن الطلب الأول يتعلق بأمور الدنيا ، والثاني يتعلق بالأمور الدينية بالآخرة .

٣ - أن نسأل الإنسان الحي بأن يقوم بعمل ، بدون الإستعانة بالوسائل المادية ، له ، كأن نطلب منه ، مثلاً ، أن يشفي مريضاً بدون دواء ، أو أن يسترد الشيء المفقود بدون البحث عنه ، أو أداء الدين بدون العمل على تحصيل المال .

وبالأحرى ، أن نطلب منه القيام بهذه الأعمال عبر المعجزة أو الكرامة ، من دون أن يستعين بالأسباب المادّية والطبيعية .

٤ - أن نسأل الإنسان الميت بأن يدعو الله سبحانه لنا، ويتأقّى الطلب من كون هذا الإنسان - برأينا - حيّ يرزق في عالم الآخرة .

٥ - أن نسأل الإنسان بأن يستعين بقدرة الله تعالى ، التي منحه إيّاها ، على شفاء مريضنا أو إعادة مفقودنا ، أو غير ذلك .

وهاتان الصورتان هما كالصورة الثانية والثالثة ، بيد إن الاختلاف بينهما يكمن في أن الطلب هناك كان من الإنسان الحي في عالم المادّة والطبيعة ، وهنا من الإنسان الميت في الظاهر ، والحيّ في واقع الحال .

وعلى هذا ، فلا يمكن أن نطلب من الميت بأن يعيننا في الشؤون المادية ، من خلال الوسائل والعوامل المادية ، وذلك لأن المفروض هو انقطاع الميت عن عالم المادّيات ، وذلك بارتحاله من هذه الدنيا .

وبناءً على هذا ، فإن المحصلة هي خمسة أقسام من الإستعانة ، ثلاثة منها تختص بالإنسان الحي في عالم المادّيات ، وتعلّق في صورتين آخرين ، بالإنسان الحي في العالم الآخر .

وإليك ، عزيزي القارئ ، دراسة الأقسام الخمسة :

الصورة الأولى :

تشكل الإستعانة بالأحياء في الأمور العادية ، التي تخطى

بالوسائل الطبيعية والعادية ، الحجر الأساسي للتمدن البشري ، حيث أن حياة الإنسان في هذا العالم المترامي الأطراف ، مبنية على أساس التعاون ، وإن العقلاء جميعاً في هذا العالم يتعاونون لأموهم الحيوية .

إن حكم هذه الصورة واضح جداً ، لدرجة أنه لم يلتبس فيه أحد أبداً ، ولم يعترض عليه أي إنسان . وبما أن بحثنا قائم على ضوء القرآن الكريم والأحاديث ، فإننا نعالج هذه المسألة من الزاوية القرآنية ، ونكتفي بآية واحدة .

فعندما أراد « ذو القرنين » أن يبنى سداً يحول دون هجوم « يأجوج » و « مأجوج » ، إلتفت إلى سكان المنطقة وقال :

﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾^(١) .

الصورة الثانية :

طلب الدعاء بالخير ، أو طلب المغفرة من الأحياء في عالم المادة :

تعتبر الإستعانة بالإنسان الحي ، للدعاء إلى الله تبارك وتعالى بالخير والإستغفار منه ، من الضرورات الواضحة التي لا يختلف فيها إثنان ، ويؤكد القرآن الكريم على ذلك في موارد عدة ، وإن الرجوع إلى الآيات البينات يثبت لنا ، أن الأنبياء - عليهم السلام - كانوا يدعون

(١) سورة الكهف : الآية ٩٥ .

لأُمَمهم بالخير والهداية والإرشاد ، أو أن الأُمَم نفسها كانت تطلب من أنبيائها الدعاء لها بالمغفرة والخير .

والآيات كثيرة ، ارتأينا لتسهيل الموضوع ترقيمها ومن ثم طرحها ، كالتالي :

١ - يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم تارة ، أن يستغفر لأُمته ، فيقول :

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ^(١) .

﴿ فَبَايِعْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٢) .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(٣) .

ويأمر الله تعالى في هذه الآية الأخيرة ، نبيه محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - بالدعاء لهم ، ويبعث دعاءه السكينة والطمأنينة في قراة أنفسهم .

٢ - وكان الأنبياء تارة يعدون المذنبين بالإستغفار لهم في الظروف الخاصة المناسبة ، فمثلاً يقول تعالى :

﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبْنَيْهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ ^(٤) .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٨ .

(٢) سورة الممتحنة : الآية ١٢ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١٠٣ .

(٤) سورة الممتحنة : الآية ٤ .

﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾^(١) .

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾^(٢) .

إن هذه الآيات الشريفة تحكي عن أن الأنبياء كانوا يمشرون المذنبين بالإستغفار ، حتى أن النبي إبراهيم - عليه السلام - وعد « آزر » بالإستغفار له ، بيد أنه حينما رآه مصرأً على عبادة الأوثان عدل عن وعده ، لأن من شروط استجابة الدعاء أن يكون المدعو له مؤمناً بالله تبارك وتعالى .

٣ - وقد أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين المذنبين بالإمثال أمام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وطلب الإستغفار لهم منه ، لأن الله يغفر لهم ببركة استغفار النبي لهم ، يقول سبحانه في كتابه الكريم :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾^(٣) .

فأية آية أوضح من هذه الآية الشريفة التي يأمر الله سبحانه فيها المذنبين من هذه الأمة ، بالإمثال أمام الرسول الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - ومسألة الإستغفار منه لهم ؟

(١) سورة مريم : الآية ٤٧ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١٤ .

(٣) سورة النساء : الآية ٦٤ .

إن المجيء إلى رسول الله وطلب الإستغفار منه له فائدتان
اثنتان :

أ - إن طلب المغفرة من الرسول الأكرم (ص) يبعث في الإنسان روح الطاعة والإنقياد لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وذلك بالإنابة والتوجه إلى عظمة النبي ووجاهته عند الله تعالى ، بحيث أن استغفاره له يوجب مغفرة الله له .

وبشكل عام ، فإن الحضور عند النبي وطلب الإستغفار منه يوجب الخضوع له ، ويُهَيِّئ الإنسان ذاتياً لأن يعمل وفق قوله تعالى :
﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (١) .

ب - إن هذا العمل يجسد في الأذهان منزلة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ومكانته بشكل جيد لدى الأمة ، ويبين لهم أن الأفاضل المادية كما أنها متوقفة على أسباب وعوامل طبيعية ، وكذلك فإن الأفاضل المعنوية ، والتي هي مغفرة الله لعباده ، تأتي عبر عوامل معينة ، مثل دعاء النبي وابتهاال أحباء العتبة الإلهية المقدسة ، للإنسان .

وإذا كانت الشمس منبعاً للإضاءة والطاقة والحرارة ، وإن هذه الخيرات تصل عباد الله بسببها ، فإن الأفاضل الإلهية والخيرات الربانية تنزل على عباد الله بسبب شمس النبوة الساطعة وتشملهم بالخير والرحمة .

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

إن عالم الوجود هو عالم الأسباب والمسببات ، وإن الخيرات المادية والمعنوية تأتي عبر الأسباب المناسبة لها .

٤ - يستتج من خلال طائفة عن الآيات الكريمة ، أن المسلمين كانوا يزورون رسول الله (ص) دوماً ويسألونه الدعاء والإستغفار لهم ، ولما اقترح المسلمون على المنافقين بالحضور عند النبي الكريم وطلب الدعاء والإستغفار منه ، أبوا عن ذلك ، كما يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَقْصِدُونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١) .

٥ - وتصرح بعض الآيات الكريمة ، أن الناس المستلهمين من الفطرة الطاهرة كانوا يدركون بأنّ لدعاء النبي تأثيراً خاصاً لهم ، وأن الله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءهم بلا تردد ، ولهذا كانوا يسألونه الدعاء والإستغفار لهم من الله تبارك وتعالى .

إنّ الناس كانوا يستلهمون من فطرتهم السليمة أن الفيض الإلهي والرحمة الربانية تدّر عبر دعاء الأنبياء ، كما أن هداية الناس وإرشادهم يتمّ عبرهم ، ولهذا كانوا يقصدونهم ويسألون منهم الإستغفار ، كما جاء في القرآن الكريم - في قصة إخوة يوسف بعد أن وقفوا على خطأهم وسوء تصرفهم بالنسبة إلى أخيهم يوسف - قوله تبارك وتعالى :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ، قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

(١) سورة المنافقون : الآية ٥ .

(٢) سورة يوسف : الآيتان ٩٧ و ٩٨ .

يلاحظ تارة ، أن فئة لا تتمتع في البحوث المتعلقة بولاية الرسل والائمة المعصومين ، بخطوات راسخة وسديدة ، تستهويها في بعض الأحيان ما يكتبه « الوهابيون » فتقول :

« إن أولاد يعقوب قاموا دون ريب بإيذائه وإعناته ، وعذبوا باله بسبب يوسف وأخاه بنيامين . والآن يرومون أن يغفر عنهم والدهم ، ومن ثم يتضرع إلى الله ليغفر لهم . . . » .

ثم يشير الكاتب المذكور إلى الآيات ٦٤ من « سورة النساء » و« سورة المنافقون » ويستنتج ما مفاده :

« يُستنتج من هذه الآية وأمثالها من الآيات ، إن كل من يرتكب إثماً لا مناص عليه من الإمثال أمام الرسول وأن يعترف بإثمه ، وأن يتضرع إلى الله بآدمه الرسول أن يغفره ، بل أن هذه الآيات في مواقع أخرى تبين أن المذنبين أنفسهم قد أجحفوا بحق الرسول ، ويطلبون منه أن يغض النظر عن خطيئتهم ، ومن ثم أن يطلب من الله المغفرة لهم »^(١) .

فليس لهذا الكلام أساس من الصحة ، لأن :

أولاً : إن موضوع البحث في الآية هو حق الله وليس حق الرسول ومصطلح « حق الله » هو المطروح وليس « حق الناس » . صحيح أن أبناء يعقوب كانوا قد ظلموا أباهم ، والمنافقون كانوا قد ظلموا النبي ، بيد أن ظلم الأبناء ليعقوب ، أو المنافقون للنبي (ص) ، ليس وارداً في هذه الآية أبداً .

(١) التفسير لآيات القرآن الصعبة ، الصفحة ١٩٦ .

ورغم أن لظلم هؤلاء بحق يعقوب والنبي صحة ، بيد أن الآية لا تشير إلى أمر كهذا ، ولا يجوز لدى تحليل الآية إلحاق أي واقع كان بالآية ، حتى ولو لم تكن له أدنى صلة بها .

فأعطوا الآيات موضع البحث ، متضلع بالعربية ملم بالقرآن الكريم ، فسترون بأمر أعينكم أنه يقول : « استغفر » أن يكون للنبي تأثيراً في كسب مغفرة الله ، وعلى هذا الأساس يأمر القرآن بالإمتثال أمام النبي من أجل الحصول على مغفرة الله ، وطلب المغفرة منه . والمدهش هو أن الكاتب ذاته يقول :

« أن الإستغفار في الآية ٩٧ من سورة يوسف (وتلك الآية من سورة النساء والمنافقون) هو وقف على حق الناس » .

فيجب الإستفسار من هذا الكاتب ، إنه إذا كانت هذه الآية متعلقة بـ « حق الناس » ، فلماذا استخدم عبارة « الإستغفار » يا ترى ؟ يعني ، لو كان المقصود هو أن يغض الرسول النظر عن حقه ويغفر لهؤلاء ، فلماذا يقولون إذن : « إستغفر لنا » ؟ في الوقت الذي يجب أن يقولوا في « سورة المنافقون » : « إغفر لنا » و « واعف عنا » وبدلاً من عبارة « يستغفر لكم رسول الله » يجب قول : « يغفر لكم » ، وكذلك الأمر في « سورة النساء » فبدلاً من عبارة « واستغفر لهم الرسول » يجب قول « وَغَفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ » . ناهيك عن ذلك ، فلقد قالوا منذ القدم أنه ليس في الأمر شيئاً خاصاً . لنفترض أن الآيات المذكورة وردت في حالة أن « حق الناس » موجود كذلك إلى جانب « حق الله » ، ويكون دعاء النبي أساساً لمغفرة هؤلاء من كلا الحقيين . ولنفترض الآن حالة يكون فيها « حق الله » فقط مطروحاً ، وليس مقروناً

بـ « حق الناس » ، فهل يعتقد أحد أن دعاء النبي في هذه الحالة ليس مؤثراً ، وآلاً يجب على المسلمين بعد أن يطلبوا من الرسول في هذا الصدد المغفرة ؟ كلا . لا يفهم ذلك التجديد أبداً ، بل يجب بسبب خفة الإثم أن يكون دعاءه مؤثراً بالدرجة الأولى .

إن الكاتب ومن أجل إضعاف المعنى المشهور الذي لا يتلاءم مع ذوقه ، أضاف عبارة ، وهي « أن يمثلوا أمام النبي ويعترفوا بخطاياهم » . إن الهدف من إضافة هذه العبارة هو أنه يروم تشبيه فحوى الآية المعروف كمثّل مغفرة البابوات ، في الوقت الذي لم يقل أحد أنه يجب على المسلم أن يعترف أمام الرسول بخطاياهم ، وخصائله ، بل يكفي أن يقول : أيها النبي إطلب لي المغفرة ، ولا صلة لطلب كهذا بمغفرة جهاز « الكاثوليك » ، وقد تحدثنا انتقاداً لنظرية الكاتب في كتاب « التفسير الصحيح لآيات القرآن الصعبة »^(١) .

يستنتج من الآيات الكريمة التي تصرّح بأن الناس كانوا يمثلون أمام رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وكانوا يطلبون منه المغفرة ، بدافع الفطرة الزكية ، كما يقول تعالى في كتابه الكريم :

﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ﴾^(٢) .

فلم يطرح في هذه الآية الشريفة غير « الحق الإلهي » وحتى أننا

(١) التفسير الصحيح لآيات القرآن الصعبة ، ص : ٥٠ - ٦٠ .

(٢) سورة الفتح : الآية ١١ .

لا نملك دليلاً على أن فئة ابن الجهاد قد اجحفت بحق النبي الأكرم (ص)، لكي يقال: إن المقصود هو أن يغض النبي النظر عن خطايا هؤلاء.

٦ - هناك آيات كريمة يُحذّر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - من الدعاء والاستغفار للمنافقين الذين لا زالوا على عبادة الأوثان، وذلك لأن عبادتهم لغير الله تعالى يحول دون مغفرة الله لهم، حتى لو استغفروا لهم النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - مما يدل على أن استغفار النبي نافذ ومؤثر إلا لمن يعكف على عبادة الأصنام، لأن عبادة الأصنام مانعة من الاستجابة، فمثل استغفار النبي لهم كمثل الماء الزلال الذي يهطل على الأرض الصلبة المانعة من نفوذ الماء فيها، يقول تعالى:

﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(١).

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٢).

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٣).

إن المذنبين سألوا النبي موسى - عليه السلام - الدعاء لهم،

(١) سورة التوبة: الآية ٨٠.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٦.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٤.

وتدلُّ جملة ﴿بما عهدَ عندك﴾ على أنهم كانوا يعلمون بأن الله تبارك وتعالى عهداً مع موسى .

أما قوله تعالى : ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ففيه احتمالان :

الأول : أن يكون طلب الدعاء لكشف العذاب عنهم عن طريق المعجزة ، وذلك بإيمانهم بقدرة النبي موسى - عليه السلام - على ذلك ، بالاستعانة بقدرة الله سبحانه وتعالى .

ومع صحة هذا الاحتمال ، فإن هذه الآية تدخل في البحث عن الصورة الثالثة ، وهي الاستعانة بالإنسان الحي للقيام بعمل إعجازي خارق للعوامل المادية .

الثاني : أن يكون طلب مجرد الدعاء لكشف العذاب ، لا المعجزة وخرق العادة .

والظاهر هو الاحتمال الثاني ، لأن المفهوم من جملة ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ هو مجرد الدعاء لكشف العذاب .

نعم ، ليس في الآية أية إشارة إلى أن الله سبحانه لا يستجيب دعاء موسى في حق المشركين ، وإنما الإشارة سبقت في آيات أخرى .

٧ - يستنتج من بعض الآيات القرآنية بأن بعض المؤمنين كانوا يستغفرون للبعض الآخر ، كما جاء في قوله تبارك وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ (١)

(١) سورة الحشر : الآية ١٠ .

إن هؤلاء لا يدعون للمؤمنين فقط ، بل إلى أولئك المؤمنين المستغفرين فإن حَمَلَةَ العرش يستغفرون للمؤمنين أيضاً ، كما في قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (١) .

واستناداً على هذا ، فما أروع أن نحذوا نحن أيضاً حذو هؤلاء في هذه السيرة المرضية لله تعالى ، ونستغفر الله للمذنبين .

إلى هنا تمّ البحث عن الصورة الأولى والثانية من الصور الخمسة في طلب الحاجة من غير الله سبحانه وتعالى . . . وإليك - عزيزي القارئ - البحث الذي يتجسد في :

الصورة الثالثة :

وهي أن نطلب الإستعانة من الإنسان الحي ، القادر على المعجزة وخرق العادة ، من أجل تنفيذ عملٍ ما ، عن طريق الإعجاز ، دون اللجوء إلى الوسائل المادية ، كشفاء المريض وتفجير الماء من عين يابسة ، وما شابه ذلك .

تعزي مجموعة من الكتاب الإسلاميين الأفاضل ، هذه الصورة - من الإستعانة - داخلية في الصورة الثانية ، وتقول : إن المقصود من

(١) سورة المؤمن : الآية ٧ .

المعجزة هو أن يسأل الإنسان ربّه بأن يشفي مريضه أو يُسَلِّد ديونه وغير ذلك ، لأن هذه الأفعال خاصّة بالله تعالى ، وما دعاء النبي والإمام إلّا وسيلة إلى الله تعالى ، ولهذا فإن نسبة هذه الأفعال إلى النبي والإمام هو من باب المجاز لا الحقيقة^(١) .

بيد أنه ، هناك في القرآن الكريم آيات تدل بوضوح على أن طلب هذه الحوائج من الأنبياء والأولياء أمرٌ صحيحٌ وليس مجازاً ، فإننا إذ نطلب من المعصوم نفسه ، القادر على المعجزة ، بأن يشفي المريض ، الذي تعذر علاجه ، فإن ذلك يتحقق بحول الله وقوّته .

صحيح أن القرآن الكريم يعزي الشفاء إلى الله سبحانه وتعالى ، ويعتبره من اختصاصه ، حيث يقول :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾^(٢) .

بيد أن آيات أخرى من القرآن الكريم ، تعزي الشفاء إلى القرآن والعسل أيضاً ، فتقول :

﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾^(٣) .

﴿ وَتَنْزِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤) .

(١) كشف الإرتياب : الصفحة ٢٧٤ . إن هذا الكلام مطروح في قسم « طلب الحاجة من الأرواح المقدسة » وستكون له بالطبع ، نفس وجهة النظر حول الأحياء أيضاً .

(٢) سورة الشعراء : الآية ٨٠ .

(٣) سورة النحل : الآية ٦٩ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٨٢ .

﴿ قد جاءتكم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾^(١) .

إن الأرضية المشتركة بين هاتين الطائفتين من الآيات الكريمة ، التي تجعل الشفاء من اختصاص الله تعالى ، وتثبتته للقرآن والعسل والمواعظ الإلهية ، هو أن الله سبحانه مؤثر في الأشياء بالإستقلال ، ومعتمدٌ على ذاته المقدسة في الأمور كُلِّها ، بينما العسل والقرآن والمواعظ الإلهية تترك تأثيرها في الأشياء بإذن الله وإرادته سبحانه .

إن النظرة الإسلامية إلى الكون والحياة ، تعتبر جميع العوامل والمؤثرات تابعة لإرادة الله وقادرة على التأثير بإذنه سبحانه ، وأن العلل والأسباب لا تملك أدنى إستقلال لها أبداً من دون فرق بين الأسباب الطبيعية والروحية .

وعلى هذا الأساس فلا مانع - على ضوء القرآن والعقل - أن يمنح الله سبحانه وتعالى - الذي جعل الشفاء في العسل والعقاقير الطبية والكيميائية ، مِرَاساً للشفاء والسلامة ، أن يمنح نفس تلك القدرة للأنبياء والأئمة - عليهم السلام - .

أنظر إلى المرتاضين ، فكيف يتمكنون من القيام ببعض الأعمال الغريبة ؟ وما المانع من أن يتفضّل الله تعالى على الأنبياء والأئمة - عليهم السلام - بقدرة الإشفاء ، ويجعلهم قادرين على القيام بأعمال محيرة للعقول وخارقة للأسباب المادية والطبيعية ؟! ...

إن قدرة الأنبياء والأئمة - عليهم السلام - على شفاء المريض

(١) سورة يونس : الآية ٥٧ .

والقيام بأعمال خارقة للعادة لا تنافي أن يكون الله جلّ جلاله هو السبب الحقيقي والعلّة الأساسية لها ، وذلك بأن مَنَحَهم القدرة على الإستحواذ على الكون - بإذنه تعالى - عندما تقتضي الحاجة والمصلحة .

والجدير بالذكر أن في القرآن الكريم آيات تصرّح بأن الناس كانوا يراجعون الأنبياء - وغير الأنبياء أيضاً - كي يقوموا بأعمال خارقة للعادة وغير طبيعية^(١) .

واليك نماذج من هذه الآيات :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾^(٢) .

يدلّ ظاهر هذه الآية على أن بني إسرائيل طلبوا من النبي موسى - عليه السلام - في وقت الجفاف وشحة الماء ، أن يهيئ لهم الماء بالطرق الغيبية والمعجزة ، لا بالأسباب المادية الطبيعية .

وترى واضحاً في الآية ، أن بني إسرائيل لم يطلبوا من النبي موسى ، أن يدعو الله ويسأله توفر الماء ، بل طلبوا منه أن يوفّر لهم الماء فجأة ومن دون سبب مادي ، ولهذا فقد أمره بأن يضرب بعصاه الحجر كي ينفجر منه الماء بطريقة إعجازيّة .

(١) للإستزادة في توضيح هذا القسم ، والإستفادة من الآيات القرآنية ، يفضل الرجوع إلى كتاب المؤلف « قدرة الأنبياء المعنوية » . فقد عرضت فيه أسناد من القرآن الكريم عن قدرة هؤلاء الروحية .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٦٠ .

والأوضح من هذه الآية ، هي الآية التي تحكي قصّة النبيّ سليمان - عليه السلام - عندما طلب من الحاضرين عنده بإحضار عرش بلقيس ، على الرغم من العراقيل والعقبات التي كانت تعترض طريقه . يقول تعالى :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾^(١) .

لقد كان هدف سليمان - عليه السلام - هو إحضار عرش بلقيس بطريقة غير اعتيادية ، ولقد تحقق ذلك فعلاً عبر فرق الطبيعة ، كما قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم :

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ ﴾^(٢) .

إن روح الموضوع وبيت القصيد هو تصور البعض بأن الأعمال العادية هي من صلاحيات الإنسان ، وأن الأعمال الإستثنائية - التي يعجز الناس منها عادة - خاضعة بالله سبحانه وتعالى ، وهذا هو الخطأ ، لأن المقياس في تمييز أفعال الله عن غيره هو الإستقلال وعدم الإستقلال فيها .

إن الأعمال الإلهية هي التي ينفذها الفاعل - وهو الله - دون تدخل الغير فيها ودون الإستعانة بقدرة الآخرين .

وبعبارة أخرى ، فإن الأعمال الإلهية هي التي يكون الفاعل مستقلاً تماماً في تنفيذها ، ولا يحتاج إلى الغير في إنجازها أبداً .

(١) سورة النمل : الآية ٣٨ .

(٢) سورة النمل : الآية ٤٠ .

أما الأعمال غير الإلهية - سواء كانت بسيطة وعادية أو صعبة وغير عادية - فهي التي لا يكون الفاعل مستقلاً في تنفيذها ، بل يتم التنفيذ تحت ظل قدرة مستقلة وبالإستمداد منها ، وهي قدرة الله تعالى .

بناءً على هذا فليس هناك أي مانع من أن يتفضل الله على أوليائه بالقدرة على إنجاز الأعمال الخارقة للعادة والطبيعة ، والتي يعجز الإنسان عادة عن القيام بها .

يقول الله تعالى في كتابه الكريم ، للنبي عيسى - عليه السلام - :

﴿ تُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ ^(١) .

فما أصرح هذه الآية في الدلالة على الموضوع !

إن هذه الطائفة من الآيات تدل على أن أولياء الله كانوا يتمتعون بهذه القدرة ، وإن طلب الناس منهم القيام بالأعمال الإستثنائية والإعجازية كان أمراً متداولاً ومعروفاً .

لقد تحدثنا - أيها القارئ العزيز - إلى الآن عن الصور الثلاث للإستعانة بأولياء الله في حياتهم ، على ضوء القرآن الكريم ، وقد عرفت بأن القرآن يُصرِّح بصحة تلك الصور ويؤكد عليها في آيات متعددة .

أما التحدث عن الصورتين الأخيرتين اللتين تتعلقان بالإستعانة

(١) سورة المائدة : الآية ١١٠ .

بالأرواح المقدسة ، فسيأتيك من خلال الصورتين الرابعة والخامسة .

الصورة الرابعة والخامسة :

إن مسألة الإستعانة بأولياء الله - بعد وفاتهم وغيابهم عن هذه الحياة المادية - هي أهم مسألة في بحث الإستعانة بأولياء الله ، ولا فرق بين أن تكون الإستعانة بصورة الدعاء أو طلب المعجزة .

أما السبب في أهمية هذه المسألة ، عن التي سبقتها ، فهو لأن المسلمين اليوم ليسوا في محضر نبي أو إمام كي يستعينوا به بصورة مباشرة ، ولهذا فهم يستعينون بأرواحهم المقدسة .

من هنا كان هذا البحث أكثر أهمية من الذي سبقه .

إن البحث في هذا الموضوع يتوقف على التحدث عن أربعة أمور ، ومن خلال التحدث عنها والإطلاع عليها تعرف جيداً صحة الإستعانة والإستغاثة بالأرواح المقدسة ، وتشتمل هذه الأمور الأربعة على :

١ - موت الإنسان لا يعني فناءه .

٢ - القرآن الكريم وجواز الإتصال بعالم الأرواح .

٣ - حقيقة الإنسان هي روحه .

٤ - الإحاديث الصحيحة التي رواها المحدثون ، وهي تنادي بصحة الإستعانة بأولياء الله ، وأن سيرة المسلمين كانت تجري على هذه الشاكلة .

وإليك عزيزي القارئ شرحاً لهذه الأمور الأربعة :

موت الإنسان لا يعني فناءه :

تصرح الآيات القرآنية بوضوح على أن الموت ليس هو نهاية الحياة ، بل هو نافذة لحياة جديدة ، وإن الإنسان باجتيازه هذا المعبر ، فإنه يخطو صوب حياة جديدة وعالم حديث تماماً ، أسمى من عالم المادة والطبيعة .

إنَّ كلَّ من يعتقد بأن الموت فناء وعَدَم ، وإن الإنسان يفقد كل شيء بالموت ولا يبقى منه أثر ، سوى جسد لا روح فيه ثم يتحول ذلك الجسد ، بعد فترة من الزمن ، إلى التراب والعناصر الأخرى . إن كل من يعتقد هذا الإعتقاد فهو ، في الحقيقة ، يُقلد الفلسفة المادية ، القائمة على إنكار ما وراء المادة ، تقليداً لا شعورياً .

إن أصحاب هذه النظرية لا يعتبرون الحياة إلا نتيجة مادية لسلسلة تفاعلات كيميائية وعمليات فيزيائية تحصل في المخ والأعصاب ، وعندما يفقد الجسم حرارته وتتوقف الخلايا عن الحركة والإنتاج ، تتوقف حياة الإنسان أيضاً ويتحوّل إلى جسد جامد هامد لا حراك فيه .

وتذهب هذه النظرية إلى أن الروح ليس إلا انعكاساً للمادة وآثارها وخواصها ، ومع فقدان هذه الآثار والخواص تبطل الروح وتفتني تبعاً للمادة .

ولهذا ، فإن هؤلاء لا يعتقدون بوجود عالم آخر بإسم عالم الأرواح .

إن نظرية كهذه تستلهم أفكارها من « الفلسفة المادية » التي تعتبر الإنسان مكنة مركبة من قِطع وأجزاء مختلفة ، وإن تأثير هذه

الأجزاء على بعضها يولّد قدرة التفكير والإستيعاب في المخ ، فإذا تعثرت هذه الأجزاء انعدمت آثار التفكير وتفنّى الحياة فناءً كاملاً .
إنّ كبار الفلاسفة والعلماء الإلهيين يُفندون تماماً نظريات الماديين حول الروح ويقولون بأنّ للإنسان ، بالإضافة إلى النظام المادي الحاكم في جسمه ، والتفاعلات المتبادلة وسلسلة الأعصاب ، جوهرأ أصيلاً اسمه « الروح » ، وهذا الجوهر يلازم البدن فترة من الزمن ثم يفصل عنه ويُخلق في عالم آخر اسمه « البرزخ » ليلتحق بجسم لطيف هناك .

إنّ التحدث عن بقاء الروح بعد الموت يستدعي كتاباً مستقلاً حوله ، ولا يمكن البحث عنه ، بالتفصيل ، في هذه الصفحات المعدودات ، وذلك لأنّ الآيات القرآنية والأدلة الفلسفية وتجارب الروحانيين الثابتة قد برهنت اليوم على بقاء الروح الإنسانية بعد الموت .

لقد ورد موضوع خلود الأرواح بعد الموت في الفلسفة الإسلامية وبصورة مسألة ثابتة [لا جدال فيها] ، ولكل من الفلاسفة الأفاضل أمثال الرئيس والشيخ الأشراق وصدر المتألهين ، دراسات عميقة في هذا المجال ، وقد وضع هؤلاء الحجر الأساس لموضوع خلود روح الإنسان بعد الموت^(١) .

احتدمت في نهضات الغرب الأخيرة الحمى المادية ، ووضعت

(١) لقد وردت أدلة انفصال الروح والنفس الإنسانية في كتاب « النظرة الإسلامية إلى الكون » بشكل مكثف .

مسائل ما وراء الطبيعة مثل الله ، والملائكة ، والروح المجردة ، وعوالم غيبية أخرى موضع الظن والشك ، بيد أن الصفحة انقلبت تماماً منذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر ، وبظهور علم « إحصار الأرواح » [spiritism] والإتصال بالأرواح بصورة مختلفة ، خفّ التبجح المادي تماماً ، وظهرت في مستهل القرن العشرين مسألة خلود الأرواح وعلاقتها بذلك بشكل مسألة حسية ، وأعدّ النفسيون بتجارهم الواسعة وأمام مجاميع من الشخصيات العلمية الكبيرة في ذلك الزمن ، مسألة أصالة الروح في عداد الحقائق ، وتخلت مجاميع كبيرة عن آرائها القديمة والتحقت بصفوف النفسيين . ومن حسن الحظ أنه حررت في هذا المجال كتباً كثيرة ، ويتمكن الراغبون الرجوع إلى الكتب المتعلقة بـ « علم إحصار الأرواح » [spiritism] .

وإننا في هذا الفصل نكتفي بذكر الأدلة القرآنية ، ونتجنب عرض الأدلة الفلسفية .

١ - الآيات القرآنية تصرح على بقاء الأرواح

إن الآيات القرآنية تصرح بجلاء على بقاء الأرواح بعد انفصالها عن الجسد ، ونورد للتذكير نصوص بعض الآيات الشريفة :

أ - ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾^(١) .

ب - ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٤ .

رَبِّهِمْ يَرْزُقُونَ ﴿١﴾ .

﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم ... ﴾ (٢) .

﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ ... ﴾ (٣) .

ج - ﴿ إِنِّي أَمُنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون ، قِيل ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ... ﴾ (٤) .

إن المقصود من الجنة التي أمر أن يدخل فيها هي الجنة البرزخية لا الجنة الأخروية ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ . إن تمني علماً كهذا لا يجاري عالم الآخرة حيث تزاح الحُجب والسُتر من أمام نظر الإنسان ، ولا تبقى حالة الأناس الآخرين مبهمة على أحد ، وإنما يتلاءم لا علم كهذا مع العالم الدنيوي حيث يجهل أناس هذه « النشأة » عن أحوال أناس « النشأة » الأخرى ، وتصرح الآيات القرآنية بهذا الصدد .

ناهيك عن ذلك ، تتضح من الآيات اللاحقة ، أنه بعد موته

(١) سورة آل عمران : الآية ١٦٩ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٧٠ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٧١ .

(٤) سورة يس : الآيات ٢٥ - ٢٧ .

وغفرانه ودخوله الجنة ، فقد أحمده بـ « صبيحة سماوية » واحدة نبراس حياة قومه ، وهنا حيث يقول :

د - ﴿ ما أنزلنا على قومه من بعده من جندٍ من السماء وما كنا منزلين إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ (١) .

يستنتج من هاتين الآيتين أنه بعد الدخول في الجنة ، كان قومه يعيشون في هذا العالم ، وفجأة داهمهم الموت ، وجنة كهذه لا يمكن أن تكون أكثر من جنة البرزخ .

والفرعونيون تداهمهم النار :

هـ - ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة ، ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ (٢) .

استناداً إلى فحوى الآيتين ، يتضح بقاء هؤلاء وحياتهم في عالم البرزخ ، لأن : قبل القيامة ، يعرضون للنار غدواً وعشياً ، وبعد أن تقوم القيامة يُدخلون إلى أشد العذاب .

فلو لم يكن ختام الآية - ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ - لكان غامضاً فحوى الجملة الأولى ، ولكن استناداً إلى ذيل الآية يتضح أن المقصود هونفس فترة البرزخ ، وإلا فلن يكون مقارنة الجملتين صحيحاً .

فضلاً عن هذا ، فإن موضوع الصبح والعصر أيضاً يشهد على أن المقصود ليس عالم القيامة ، لأن في ذلك العالم لا وجود للصبح والعصر .

(١) سورة يس : الآيتان ٢٨ و ٢٩ .

(٢) سورة المؤمن : الآية ٤٦ .

و : « دخلت » أمة نوح « بعد الغرق النار » :

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَاراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾^(١) .

من الممكن تصور أن دخول هؤلاء النار لكونه كان مؤكداً ،
فلهذا أورد بلفظة الماضي - « فادخلوا ناراً » - ولكن تأويلاً كهذا بدون
دليل ليس صحيحاً ويناقض ما هي عليه الآية .

فلو كان هذا مفاد الآية ، لوجب أن يقال « ثم ادخلوا » بدلاً من
« فادخلوا » ، لأن وعلى ضوء هذا يحتمل أن تكون المسافة بين الغرق
ودخول النار سنوات متمادية .

وبسبب هذا التأويل ، مجبرون مرة أخرى أن نأول عبارة « فلم
يجدوا » أيضاً والتي تبين الماضي ، وأن نفسر عبر « محقق الوقوع » ،
وليس كل هذا التأويل بدون دليل صحيحاً .

٢ - القرآن الكريم وجواز الصلة بالأرواح

إن إثبات خلود الروح المجردة من المادة ليس كافياً لتجوير
الإستغاثة وكونها مفيدة ، بل لا بدّ بالإضافة إلى خلودها ، جواز أن
يثبت وجود العلاقة من وجهة النظر العلمية والقرآنية ، حيث أننا تحدثنا
حول ذلك بالتفصيل في كتاب « أصالة الروح » .

والآن نشير هنا بصورة عامة ، على تصريح آيات عدة بأن صلة
الإنسان بالقدامى هي باقية ، ولم تنقطع هذه العلاقة لحد الآن .

(١) سورة نوح : الآية ٢٥ .

أ - النبي صالح (ع) تحدّث إلى أرواح قومه :
يقول تعالى :

﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربّهم وقالوا يا صالح اتتنا بما
تعبدنا إن كنت من المرسلين ﴾ (١) .

﴿ فأخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جائمين ﴾ (٢) .
﴿ فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم
ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ (٣) .

تأمل في فحوى الآيات الثلاثة :

. تتحدّث الآية الأولى عن أنهم كانوا أحياء طلبوا منه عذاباً
إلهياً (العذاب الإلهي الموعود) .

تحكي الآية الثانية أن العذاب الإلهي أخذهم ، وأبادهم
جميعاً .

تشير الآية الثالثة إلى ما قاله النبي صالح - عليه السلام - بعد
موتهم وفنائهم ، حيث تأسف على المصير الأسود الذي اختاروه
لأنفسهم ، وقال مخاطباً إياهم :

(١) سورة الأعراف : الآية ٧٧ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٧٨ (في بعض الآيات القرآنية يعزى بسبب فناء هؤلاء صيحة
سماوية « سورة هود ، الآية ٦ » والبعض الآخر تعزى ذلك إلى الصاعقة « سورة
فصلت ، الآية ١٧ » ، وفي هاتين الآيتين أعزيت إلى الزلزلة . بيد أن الآيات تجمع
على أن ذلك كان نتيجة صيحة سماوية قوية مرافقة بالصاعقة والهزة الأرضية) .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٧٩ .

لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين .

إن الوثيقة الدامغة التي تدلّ على أنه هكذا تحدث معهم بعد الهلاك ، تشتمل على دليلين اثنين ، هما :

١ - تنظيم وتنسيق الآيات بالشكل الذي سبقت الإشارة إليه .

٢ - إن حرف (الفاء) في كلمة (فتولى) التي تدلّ على الترتيب ، يعني فتولى عنهم بعد هلاكهم ، وقال لهم :

إن عبارة (ولكن لا تحبون الناصحين) تدلّ على أنهم كانوا قد غرقوا في العناد والشقاوة إلى حد أنهم كانوا بعد الموت أيضاً يحملون هذه النفسية الخبيثة ، ولا يحبون أيضاً الناصحين والمرشدين .

أن صراحة القرآن الكريم هي أنه يتحدث مع أرواح أمته ويجد ، ويعتبر هؤلاء طرف الحديث ، وينبئ عن عنادهم الدائم والذي سوف يرافقهم بعد الموت أيضاً ، ويقول : والآن أيضاً أنكم لا تحبون الناصحين .

ب - تحدث النبي شعيب - عليه السلام - إلى أرواح قومه القدامى :

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾^(١) .

﴿ الذين كذبوا شعبياً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعبياً كانوا

(١) سورة الأعراف : الآية ٩١ .

هم الخاسرين ﴿١﴾ .

﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت
لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ (٢) .

إن طريقة الاستدلال في هذه الآية ، وفي الآيات المتعلقة
بصالح هي واحدة .

ج - يتحدث رسول الإسلام (ص) مع أرواح الأنبياء :
﴿ وَسُئِلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ
إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٣) .

إن مفهوم الآية الشريفة هو أن النبي الأكرم (ص) يستطيع من
خلال النشأة الطبيعية نفسها أن يتصل بالأنبياء (ع) الذين يقضون في
نشأة أخرى ، لكي يتضح أن أمر الله لكل الأنبياء في جُلّ القرون
والعصور كان ألاّ يعبدوا غير الله أحداً .

د - سلام القرآن الكريم على الأنبياء :

لقد بعث القرآن الكريم للأنبياء في حالات معينة السلام
والتحايا . ولم يكن هذا السلام وهذه التحايا أبداً تحايا جافة
ومجاملات لا معنى لها أو رسمية .

(١) سورة الأعراف : الآية ٩٢ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٩٣ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٤٥ .

إن الزهو ليس من الإنصاف كأن نروم التطبيق السطحي لمعاني القرآن العزيز السامية ليصطبغ بصبغة الإبتذال . صحيح أن ماديي العالم الذين لا يولون الأصالة للروح ، يقدمون التحايا تجليلاً لقادة ومؤسسي المدرسة المادية ويعثون لهم السلام ، ولكن هل من الصحيح أن نطبق مفاهيم القرآن السامية والتي تبين حقيقة واحدة وواقعاً واحداً ، أن نطبقها بهذا المستوى ، ونقول أن جميع هذه التحايا التي بعثها القرآن للأنبياء ، ونحن المسلمون نتلوها أيضاً صباح مساء ، هي حفنة من مجاملات جافة خالية من المعنى . وهنا حيث يقول :

١ - ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾^(١) .

٢ - ﴿ سلام على إبراهيم ﴾^(٢) .

٣ - ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾^(٣) .

٤ - ﴿ سلام على آل ياسين ﴾^(٤) .

٥ - ﴿ سلام على المرسلين ﴾^(٥) .

هـ - تحية للنبي الأكرم (ص) في تشهده :

إن جميع المسلمين في العالم ، رغم الفوارق الموجودة في فروعهم الفقهية يخاطبون النبي -الجليل (ص) صباحاً ومساءً ، ويقولون :

(١، ٢، ٣، ٤، ٥) سورة الصافات : الآيات ٧٩، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٠، ١٨١ .

« السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » .

أما الواقع فهو أنَّ الشافعيين والبعض الآخر يعتبرون التشهد ضرورة وواجب ، ويستحب ذلك أنصار المذاهب الأخرى . بيد أن الجميع يجمعون على أن النبي الأكرم (ص) هكذا علم المسلمين ، وأن سنة النبي (ص) لا تزال باقية في حياته وبعد مماته .

فإن كانت علاقتنا وصلتنا مقطوعة ومقطومة حقاً مع النبي ، فما معنى تحية كهذه ، وبشكل المخاطبة ؟

في الختام نعيد إلى الأذهان ، أن الإستدلال بالتحية في التشهد اتخذ موضع الدراسة لكونه جاء مبرماً في الآيات (١) .

٣- واقع الإنسان هو نفس وروحه :

إن الإنسان في النظرة الأولى ، هو مركب من الجسم والروح . بيد أن واقع الإنسان هو نفس الروح المقرون بالجسد .

إننا لا نبحث هذه المسألة من وجهة النظر الفلسفية ، ولا تهمننا في الحقيقة وجهات نظر فلاسفة اليونان والإسلام ، بل إننا نطرح هذا الموضوع حسب رؤية القرآن الكريم .

نستشف من خلال تحليل الآيات الواردة في القرآن بصدد

(١) العودة إلى كتاب « تذكرة الفقهاء » ج ١ ، وكتاب « الخلاف » ج ١ ص ٤٧ . لقد نقل التشهد في كتاب « الخلاف » عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن المسعود بعدة أشكال ، بيد أن للجميع حُلُمٌ سلاماً كهذا . واختارت كل من المذاهب الأربعة شكلاً من أشكال التشهد وافقوا [من الفتوى] على ذلك .

الإنسان ، الحقيقة التالية وبشكل جيد : أن واقع الإنسان هو عين روحه ونفسه . والآن انظروا ملياً إلى فحوى هذه الآية الكريمة :

﴿ قُلْ يَتُوفَاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾^(١) .

إن كلمة « توفى » على النقيض مما هو معروف ، فهي لا تعني الإمامة ، بل هي معنى الأخذ والإلتقاط^(٢) . وعلى هذا فإن فحوى عبارة « يتوفاكم » هو أن : « يأخذكم أنتم » . فكلما كان واقع الإنسان هو عين روحه ونفسه ، يكون تعبير الآية صحيحاً ، ولكن إذا كانت الروح والنفس جزء من شخصية الإنسان ، وأن يكون نصفه الآخر هيكله الخارجي . ففي هذه الحالة لا يكون تعبير كهذا جائزاً ، لأن ملاك الموت لا يأخذ أبداً جسدنا ومادتنا الخارجية ، بل إنه يبقى الجسد على حالته ، ويأخذ روحنا فقط .

إن الآيات التي تجلي مكانة الروح والنفس نسبة إلى الإنسان ، ليست وفقاً على هذه الآية ، ونكتفي نحن كنموذج بآية واحدة .

إن هذه الحقيقة كون « أن واقع الإنسان ومركز كمالاته الروحية والمعنوية هو الروح نفسه ، والجسد هو الثوب الذي غلفوه به » تتجلى تماماً آخذين بنظر الاعتبار خلود الروح بعد الموت والتي هي إحدى معارف القرآن . إن القرآن يعتبر الموت فناء الإنسانية وخاتم حياة

(١) سورة السجدة : الآية ١١ .

(٢) للمرحوم « العلامة بلاغي » في مقدمة « تفسير آلاء الرحمان » بحث قيم حول لفظة « توفى » ، الصفحة ٣٤ .

البشر ، بل إنه يؤمن أن « للشهداء والتقات » و « الجنة » حياة قبل حلول يوم القيامة . « حياة » يرافقها « السعد والسرور » يتخللها « التبشير والبشارة » ، والأخرى يرافقها « العذاب المؤلم » و . . .

فعندما يكون واقع الإنسان هو نفس جسده المتركب من العناصر ، لا شك في أن الجسد يتلاشى بعد بضعة أيام ويتحول إلى عناصر مختلفة ، ففي هذه الصورة سيكون بقاء الإنسان ، أو حياة البرزخ شيئاً لا مفهوماً .

إن نتيجة الآية حيث « الإنسان في الماضي » يمتلك جُلَّ كمالاته وروحياته في ظل خلود الروح ، ويتصدق القرآن يتناول كفافه اليومي ، ويفرح ويسعد ، ويعطي الأخبار السارة والبشارة ، ويتذكر أقوامه وأصدقائه ، يشعر بالألم والوجع و . . . غيرها^(١) .

ومن جهة أخرى لا تتصدع ، بمقتضى الآيات السالفة ، وصِلتنا وعلاقتنا بهم ، ويمكن التحدث معهم كما لو كان عالم المادة . ففي هذه الحالة ، لماذا يتعذر علينا طلب الدعاء (الصورة الرابعة) من « الإنسان في القدم » أو ابتغاء الحاجة منه (الصورة الخامسة) ؟ .

إن الفئة التي تقول ، أن أي نوع من الإبتغاء سواء كان دعاءً أو غيره من الأرواح المقدسة ليس صحيحاً ، لا بد أن تعتمد على إحدى العلل التالية :

أ - إن مسألة الدعاء وغير الدعاء من شخص في القديم هو

(١) الآيات المتعلقة بهذه المضامين منقولة في قسم « الإرتباط بالأرواح » . الرجوع إلى كتاب « أصالة الروح » .

شرك ، حيث تجلى لحسن الحظ أن لا أساس لها وذلك بتحديد حقيقة الشرك ، وإن محور البحث في هذه الأطروحة ، هو جهة أخرى غير الشرك .

ب - لا حياة بعد الموت ، ولنفرض أنها حسية فصلتنا بهم مقطوعة .

إن هذين الافتراضين أيضاً بمقتضى الآيات القديمة باطلة ولا أساس لها .

ج - إن القدرات المعنوية والكمالات الروحية وتكريم واحترام الأنبياء ، هي محصورة بحياة هؤلاء المادية والجسمية ، وبغير هذا فهي فاقدة لكل نوع من الكمال المعنوي والقرب الإلهي .

وهذه الفكرة أيضاً ليس لها أي أساس أو أرضية ، لأنه وبمقتضى نظرة القرآن إلى الكون والبراهين الفلسفية ، فإن روح الإنسان كانت مركز القدرة ومنبع جُلُّ الكمالات ، وإن واقع الإنسان هو عين روحه ونفسه ، والجسد هو كالثوب كُسي به هيكله بمقتضى الضرورة ، ومن أجل نمو وتكامل الروح . وإن انفصال الروح عن الجسد ، خاصة روح الأولياء الإلهيين ، هي برهان على تكامل الروح وعدم حاجة الروح إلى الجسد المتركب من العناصر ، وليس أن انفصال الروح عن الجسد ، أساس لإزالة وفناء كمالات هؤلاء الروحية وقواهم المعنوية .

استناداً إلى هذه المقدمات ، فإن ابتغاء الحاجة ومسألة الدعاء وغير الدعاء من الأرواح المقدسة بنفس الشكل الذي يُتخذ في عالم المادة وفي الحياة المترتبة من العناصر ، سوف يكون صحيحاً .

وهايي بثوب تجويز التوسل

لا مناص لنا هنا من ذكر هذه النقطة :

نشر « محمد نسيب الرفاعي » مؤسس « الدعوة السلفية » كتاباً تحت عنوان « التوصل إلى حقيقة التوسل » في ٣٥٠ صفحة . هو من أحد مقلدين وعملاء « ابن تيمية الدمشقي » و« محمد بن عبد الوهاب النجدي » الأشداء ، ويستفاد من كل قسم من أحاديثهم ، وخاصة أحاديث ابن تيمية ، بيد أنه رام في الظاهر أن يكتب حول مسألة التوسل كتاباً محايداً تماماً ، وأن يحكم من خلال الكتاب والسنة بين فئتين ، ولكن مع الأسف لم يهدف الكتاب سوى أحياء مدرسة ابن تيمية ، وذلك بشكل تكهني ، لا غير . فرغم أنه يحاول أن يتعامل مع الأمور بهدوء خاطر ، ولكنه بين في عدة بحوث روحيته الوهابية ، والتي هي شتائه ذاتها للمسلمين ، وفرغ سموه من خلال سلاية قلمه .

لقد قسم التوسل في هذا الكتاب إلى نوعين من التقسيم ، واطلق عليها عنواني : « المشروع » و« الممنوع » . فالتوسلات المشروعة برأيه ، هي عبارة عن :

١ - التوسل إلى الله وأسمائه وصفاته .

٢ - توسط أي إنسان بأعماله الصالحة التي قام بها طوال حياته .

٣ - التوسل بدعاء الأخ المؤمن في حالة الحياة .

فقد استدل هو من أجل جواز التوسل بهذه الموارد الثلاثة من الكتاب والسنة . ونحن لا تهمنا في الحقيقة توسلاته الممنوعة ، لأننا

سوف نحلل أحاديثه في قسم التوسل . والآن نشير إلى نقطتين من توسلاته المشروعة :

أولاً : لم يشك أي شخص من شعوب العالم أي كان دينه ومذهبه ، ولم يتردد في التوسل بالله وأسمائه وصفاته ، حيث أنه خصص فصلاً لكل من هذه الموارد ، واستدل على جوازها من القرآن والسنة . إن الوازع الديني واهتمام الإنسان بعالم ما وراء الطبيعة هي مسألة فطرية ، والإنسان من حيث لا يشعر يميل إلى عالم آخر في حالات التعاسة والشقاء ، ولا تحتاج أمور كهذه استدلال بالقرآن والحديث . بعبارة أخرى : إن البحث عن الله وحب الله مجبولة بفطرة الإنسان ، ولا يستطيع أي شخص أن يتخلى عن شعور كهذا وحتى إذا أنكر ذلك قولاً ، فإنه يقبله قلباً .

ثانياً : فالحالة الوحيدة من التوسل المشروع ، تستطيع حسب نظرته أن تكون موضع الإهتمام ، هي نفس توسل الإنسان بدعاء الأخ المؤمن حيث أنه من أجل مشروعية ذلك استدلال على الآيات السالفة^(١) ، ولكنه في الحال ومن أجل أن لا يتخلف عن مدرسة « ابن تيمية » قيد شعرة ، يقول أن هذه الآيات متعلقة بطلب السؤال من الأحياء ، ولا يمكن أبداً أن يكون دليلاً على ذلك ، أنه يمكن طلب الدعاء من الأرواح أيضاً^(٢) .

(١) سورة النساء : الآية ٦٦ ؛ وسورة يوسف : الآيتان ٩٧، ٩٨ ؛ وسورة المنافقون :

الآية ٥ ؛ وسورة الفتح : الآية ١١ .

(٢) « التوصل إلى حقيقة التوسل » الصفحة ١٣٦ - نص عبارته هي هكذا :

كل هذا إنما كان ولا شك في حياته (ص) ولا يجوز لأحد بعد وفاته ، أن يأتي قبره =

ونحن بدورنا نسأله :

فلو كنا في الحقيقة محددين ومقيدين في تفسير وتوضيح فحوى الآيات ، وأن لا نستطيع توسيع حكم الآية من الحياة المادية إلى حياة النبي البرزخية ، فيإذن لا بد أن نقول : أن الآيات موضع الدراسة متعلقة بسؤال من النبي (ص) ودعاء منه ، ولا من الإمام أو الأولياء الإلهيين أو الأخ المؤمن ، لأن الآيات هي موضع نظره حول « النبي يعقوب » - عليه السلام - و « نبي الإسلام » - صلى الله عليه وآله وسلم - . فكيف تستخلصون أنتم من هذه الآيات حكماً كلياً ، وتقولون أن أحد التوسلات المشروعة هو التوسل بدعاء الأخ المؤمن ؟!

فلو تمكنا في الواقع أن نفهم من الآية الحكم المطلق للسؤال والدعاء من الأخ المؤمن ، واعتبار النبي نموذجاً سامياً للأخ المؤمن ، وأن تكون لنا نظرة شاملة في حالات الأنبياء أيضاً ، وخاصة الأخذ بنظر الاعتبار التمهيدات السابقة وهذا المقصود بالتوسل بدعاء الإنسان الكامل ، حيث أن دعائه هو سكينته وهدوء للبال ، إن كان هذا الإنسان في عالم المادة،أو في عالم آخر .

= ويسأله أن يستغفر الله له ، لأن استغفاره قد انقطع بوفاته ، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى

- بأبي هو وأمي - ولم يعد يستطيع الدعاء والإستغفار لأنقطاع عمله بالوفاة .

وبناءً على ذلك ، فإن كل سؤال منه بالإستغفار بعد وفاته محرمٌ وليس لأحد أن يحتج

بالآية على فعل ذلك ، فالآية خاصة بحياته ، لأن الله تعالى يحكي عن المنافقين

الذين يصدون عن الحق وعن اتباعه .

إذاً هذه الحكاية عن واقع حال أيام الرسول ، يذكرها الله في القرآن ويرويه لنا

لنتعظم بما فيها ونعمل بما نفهم منها . . . ويبين لناصحة ما إذا أردنا أن نتوسل بدعاء

أحد لنا .

فإذا كان في الحقيقة سبب التوسل بدعاء النبي هو نفس نفوذ دعائه ، حيث أن القرآن ضمّن استجابته بشكل صريح ، وأن نفوذ دعائه بسبب روحه الطاهرة ونفسه الزكية من أدران الخطيئة بسبب مجموعة من الملكات النفسانية والصفات الملكوتية لـ « النبي الأعظم » - صلى الله عليه وآله وسلّم - ، وأن هذه المناحي محفوظة وثابتة سواء في فترة حياته ، أو في فترة مماته . وإن كان لجسده المتركب من عناصر وقور ، وليت الرسول ومنزله الصغير وقور متميز بمقتضى القرآن الكريم ، ولو أن القرآن يشير إلى عينيه وصدره وقلبه ، هذه وغيرها بسبب وصلتها بروحه المقدسة ، التي هي مركز الألطاف الغيبية والمعنوية ، وقد عبّر عنها القرآن بعبارة : ﴿ وكأن فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

وحتى عندما صاحت وصرخت عائشة بجوار قبر « الرسول الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلّم - وحالت دون دفن « الإمام المجتبي » - عليه السلام - بجوار النبي ، ولم تعر اهتماماً لحرمة النبي ، جعلها « الحسين بن علي » - عليه السلام - أن تسكت ، بقراءته الآية الشريفة أدناه . ثم أضاف :

﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي إن الله حرّم من المؤمنين أمواتاً ما حرّم منهم أحياء ﴾ ^(١) .

(١) « تفسير نور الثقلين » : المجلد ٥ ، الصفحة ٨٠ و ٨١ ، الحديث ٧ . والسهودي (علي نور الدين) في « وفاء الوفا بأخبار المصطفى » المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٦٠ يكتب :

« والعلماء فهموا من الآية العموم لحالتي الموت والحياة واستحبوا لمن أتى القبر أن يتلوها ويستغفر الله تعالى وحكاية الإعرابي في ذلك نقلها جماعة من الأئمة . . . » .

وبسبب نفس هذه الرؤية الشمولية فإنهم صنعوا لوحة عليها الآية المذكورة وذلك في مسجد النبي ، ولأن يحولوا دون الأصوات المرتفعة نصبوها بمواجهة قبر « النبي الأكرم » (ص) . إن الفئة التي تروم أن تعزي هذه الأمور لحالة خاصة في حياة النبي ، لا مناص عليها أن توقف الكثير من أحكام القرآن ، أو أن تعتبرها مجموعة أحكام إنصرم وقتها ، ولا يتوجب أن تؤدي الصلوات ، ولا يجب أن تتحدث يهدوء بجوار قبره . يورد « السمهودي » مفكر المدينة القذ ، المتوفي سنة ٩٩١ في كتابه القيم ، « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » الموضوع التالي :

« دخل المنصور العباسي في فترة ولاية عهده بمحاورة مع المالك ، مفتي المدينة ، في مسجد النبي ، فعندما رفع المنصور صوته ، قال المالك :

« إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَدَبَ قَوْماً فَقَالَ ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ وَمَدَحَ قَوْماً فَقَالَ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ وَذَمَّ قَوْماً فَقَالَ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات ﴾ . وَإِنْ حَرَمَتْهُ مَيْتاً كَحَرَمَتِهِ حَيّاً فَاسْتَكَانَ لَهَا أَبُو جَعْفَرٍ »^(١) .

إن المنصور بسماعه هذا الموضوع امتثل وهذا واستكان .
إن للسّمهودي في « وفاء الوفا » حديث في آداب زيارة النبي (ص) يحكي على أن الآية المتعلقة باستغفار النبي حول المذنبين ، لا ترجع إلى فترة حياته ، حيث يقول :

(١) « وفاء الوفا » ، المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٧٦ ، طبع مصر ، تصحيح « محمد محيي الدين عبد الحميد » .

« ويجعل القبر تلقاء وجهه والقبلة خلف ظهره والمنبر عن يساره ويقول في دعائه اللهم إنك قلت في كتابك لنبيك عليه السلام ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك ﴾ وأني قد أتيت نبيك مستغفراً فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته »^(١) .
 فهل بهذا التصريح ، يبقى لنا مجالاً أن نشك ونتردد بعمومية وشمولية الآيات المتعلقة بالأنبياء ، وأن نقول أن هذه الآيات متعلقة فقط بفترة حياة هؤلاء ؟!

نحن نعتقد أن تكون هذه الدراسة الشاملة كافية في إثبات صحة المدعى ، بيد أننا سوف نتحدث - بغية تكملة الدراسة - حول الموضوع الرابع الذي يبين عمل المسلمين في العصور السالفة . في هذا القسم سوف نورد انموذجاً عن استغاثة المسلمين من النبي (ص) ، وسيطول بنا الحديث لو نقلنا جميعها . نحن لا يهمنا في الحقيقة إلى أي مدى صحيحة محتويات ما سوف نقله ، والذين يدعون أن الرسول الأكرم (ص) أجاب على طلبهم فهل أن جوابه متين وثابت أم لا ، فلأنه يتحدث عن نوع من المديح ، يتعذر تقبلها بهذه السرعة . بيد أن جوهر الحديث يكمن هنا في أنه إذا كان طلب حاجة من « الرسول الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم - من الأمور الممنوعة ، فإنهم لم يصبحوا أبداً أشخاص يدعون وقائع وأحداث كهذه ، وبكلام آخر ، إذا كانت إجابة النبي صحيحة ، ففي هذه الحالة يتحقق قصدنا ، وإذا كانت عارية عن الحقيقة ، فإنه يعني أن طلباً كهذا كان عملاً صحيحاً لدى الرأي العام للمسلمين ، أن يتسلل

(١) المصدر السابق .

أشخاص ولو حتى من أجل الثناء على أنفسهم عن هذا الطريق .

٤ - المسلمون وابتغاء الحاجة من الأرواح المقدسة :

أن ابن تيمية وأنصاره وبحكم مسبق خاص ينكرون أن تكون صحابة الرسول والمجاميع التي تلت الصحابة قد ابتغت حاجة من الرسول ، وبهذا الصدد يقولون :

« ولم يكن أحد من سلف الأمة في عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين يتخيرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء ويسألونهم ولا يستغيثون بهم لا في مغيهم ولا عند قبورهم »^(١) .

يحتمل أن يتصور شخص غير مضطلع بتاريخ الصحابة والتابعين أن يكون لهذا الافتراء حقيقة ، ولكن لدى الرجوع إلى التاريخ يثبت ما يناقض ذلك . أننا كنموذج نورد عدة حالات :

١ - « أصاب الناس قحط في زمان عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبي فقال يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا فأثابه رسول الله (ص) في المنام فقال : إئت عمر ، فأمرته السلام ، وأخبره أنهم مسقون »^(٢) .

ثم يقول السمهودي :

« ومحلُّ الإستشهاد طلب الإستسقاء منه (ص) وهو في البرزخ

(١) الرجوع إلى « رسالة الهدية السنية » ، الصفحة ١٦٢ ، مطبعة المنار - مصر ، وكذلك إلى « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٢٦٧ .

(٢) « وفاء الوفا » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٩٣٧٤ طبع في مصر .

ودعاؤه لربه في هذه الحالة غير ممتنع وعلمه بسؤال من يسأله قد ورد فلا مانع من سؤال الإستسقاء وغيره منه كما كان في الدنيا .

٢ - يروي « السمهودي » عن « الحافظ أبي عبد الله محمد بن موسى بن النعمان » بسند يعود إلى « علي بن أبي طالب » - عليه السلام - :

« إن إعرابياً جاء إلى المدينة بعد ثلاثة أيام من دفن النبي (ص) فرمى بنفسه على قبر النبي ووضع من ترابه على رأسه وقال : « يا رسول الله قلت فسمعنا قولك ، ووعيت عن الله سبحانه ما وعينا عنك ، وكان فيما أنزل عليك : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي . . . »^(١) .

إن الكاتب المذكور ينقل في ذيل الباب الثامن ، وقائع كثيرة ، حيث تحكي جلها عن أن الإستغاثة وطلب الحاجة من الرسول ، كانت « السيرة المستمرة » للمسلمين ، حتى أنه يقول : أن « الإمام محمد بن موسى بن النعمان » كتب حول هذا الموضوع كتاباً تحت عنوان : « مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام » .

برغم أن الوقائع التي كتبها في هذا الحقل لم تثبت صحتها ، ولكنها على أية حال تحكي عن أن ابتغاء الحاجة من النبي كان أسلوباً جماعياً للمسلمين ، ولو لم تكن قد ثبتت سيرة كهذه ، لم يكن ينقلها لا السمهودي ، ولا كان الأشخاص ينسبون إلى أنفسهم عمل كهذا ،

(١) « وفاء الوفا » ، المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٦١ - سورة النساء : الآية ٦٤ .

حتى أن السهمودي ينقل لنفسه حدثين اثنين يحكيان عن شيوخ
الإستغاثة من « النبي الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم - في تلك
العصور ، والآن نذكر نماذج أخرى :

٣ - يقول « محمد بن المنكدر » :

« أودع رجل أبي ثمانين ديناراً ، وخرج للجهاد وقال لأبي : إن
احتجت أنفقها إلى أن أعود ، وأصاب الناس جهداً من الغلاء ، فأنفق
أبي الدنانير ، فقدم الرجل وطلب ماله ، فقال له أبي : عد إليّ غداً ،
وبات في المسجد يلوذ بقبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مرة
وبمنبره مرة ، حتى كاد أن يصبح ، يستغيث بقبر النبي ، فبينما هو
كذلك وإذا بشخص - في الظلام - يقول : دونكها يا أبا محمد ، فمدَّ
أبي يده فإذا هو بصرة فيها ثمانون ديناراً ، فلما أصبح جاء الرجل
فدفعها إليه » (١) .

٤ - يقول أبو بكر المقرئ :

« كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ في حرم رسول الله (ص) وكنا
على حالة وأثرٌ فينا الجوع ، وواصلنا ذلك اليوم ، فلما كان وقت
العشاء حضرت قبر النبي (ص) فقلت : يا رسول الله : الجوع . . .
فحضر الباب علويٌّ فدقَّ ففتحنا له ، فإذا معه غلامان مع كلِّ
واحدٍ زنبيل فيه شيء كثير ، فجلسنا ، وأكلنا ، وظننا أن الباقي يأخذه
الغلام ، فولَّى وترك عندنا الباقي ، فلما فرغنا من الطعام قال العلوي :
يا قوم أشكوتم إلى رسول الله ؟ فأني رأيت رسول الله في المنام فأمرني
أن أحمل بشيء إليكم » (٢) .

(٢٠١) « وفاء الوفا » المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٨٠ - ١٣٨٥ (طبعة مصر) .

٥ - يقول ابن جلاّد :

« دخلتُ مدينةَ النبي (ص) وبقي فاقة ، فتقدمتُ إلى القبر
وقلت : ضيفك . فغفوتُ فرأيتُ النبي فأعطاني رغيفاً ، فأكلتُ
نصفه ، فانتبهتُ ويدي النصف الآخر »^(١) .

أننا في الحقيقة لا تهمنا صحة وصواب هذه الأحداث والوقائع .
إن كلامنا هو أن هذه الوقائع صحيحة كانت أم كاذبة تصرح على أن
عملاً كهذا كان شائعاً ، وإن كانت هذه الأعمال بدعة وحرام ، أو شرك
وكفر ، فلم يكن مختلفين والواضعين المتمرسين لينقلوا مواضيع كهذه
أبداً ، لكي يشوهوا سمعة هؤلاء لدى الناس .

لقد نقلنا في كتاب « أصالة الروح » قسم « الارتباط بالأرواح »
روايات وأحاديث تحكي جميعها عن صحة مسألة الدعاء من الأرواح
المقدسة . قال « أمير المؤمنين » - عليه السلام - بعد تغسيل « النبي
الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم - هذا :
« بأبي أنت وأمي . . . أذكرنا عند ربك »^(٢) .

أن مؤلف « وفاء الوفا » ضمن قصيدة يتوسل فيها بخاتم الأنبياء
ويقول :

« فأنجز لي رسول الله نصري لتهنأ لي بهذا الحرم الإقامة
فقد أملتُ جاهك يا ملاذي لذا ولكلّ هول في القيامة »^(٣)

(١) « وفاء الوفا » المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٨٠ .

(٢) « نهج البلاغة » ، المجلد ٨ ، الصفحة ٢٥٥ ، الخطبة ٢٣٠ .

(٣) « وفاء الوفا » ، المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٨٦ و ١٣٨٧ .

يكتب أبو محمد الأشبيلي في كتابه « في فضل الحج » :

« مرض رجل من أهل غرناطة مرضاً شديداً بحيث عجز أطباء ذلك الوقت عن مداواته . في هذه الأثناء كتب (أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال) من جانبه خطاباً إلى رسول الله طلب فيه شفاؤه وتحسنه ، وكتب بهذا الصدد أشعاراً عدة ، مفاد القسم منها كما يلي :

عتيقك ، عبد الله ناداك ضارعاً
وقد أخلص النجوى وأيقن بالعطف
وإنني لأرجو أن تعود سوية
بقدره من يحيي العظام ومن يشفي
فأنت الذي نرجوه حياً وميتاً
لصدف خطوب لا تريم إلى صرف^(١)

إن هذه الدراسة تثبت بجلاء صحة وثبات ابتغاء الدعاء والحاجة من الأرواح . وفي الختام نتناول النقطة الأخيرة بالتحليل :
من المحتمل أن يقال : « ما فائدة طلبات كهذه ؟ » .

إن جواب ذلك واضح . بنفس الوجهة التي نبتغي فيها حاجة من الأحياء ، خاصة مسألة الدعاء ، أو ابتغاء أمور خارقة العادة ، بنفس الوجهة أيضاً نستمد من الأرواح المقدسة : لأن المفترض هو أن وضع هؤلاء لم ينقلب ، وشروط استجابة الدعاء أو قدرة هؤلاء لم تتكرر .

(١) « وفاء الوفا » ، المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٨٦ و ١٣٨٧ .

القسم الثاني

التشفع بالأولياء الإلهيين

ليس التشفع بالشافعين التفات من حيث النظرة الواقعية ، دراسة مستقلة ومنفكة ، بل هي فرع من دراسة قديمة ، لأن « التشفع » ، هو مسألة الدعاء من « الأرواح المقدسة » ذاته ، أو هو ابتغاء الإستحواذ على روح ونفس الإنسان في يوم القيامة ، لكي تظهر في ظل هذا التصرف تكريراً في روح ونفس الإنسان ، ليستطيع أن يكون ضمن حركة الأطهار ، وأن يتحول في المصير مثلهم .

إذا أجازت الأدلة الثابتة في القسم السابق كلا نوعي الإبتغاء من الأولياء الإلهيين ، فلا حاجة لتخصيص قسم مستقل للتشفع . ولكن لكون هذه الدراسة قد أثرت في كتب الوهابيين وبصور مستقلة ، فنحن أيضاً نغض النظر عن دمج الدراستين الواحدة في الأخرى ، ونتابع هذه الدراسة بشكل مقتضب . ويتصريح نصوص التاريخ ، وسيرة المسلمين ونهجهم منذ عهد « النبي الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم - والعهد التي تلت ، فإن التشفع بالشافعين الصالحين كان موجوداً ، وكانوا دوماً يسألونهم الشفاعة في حالة حياتهم ومماتهم ، ولم يعتبر أي مفكر إسلامي مثل هذا الطلب مناقضاً لمبادئ الإسلام .

إلى حد أن « ابن تيمية » عارض في القرن الثامن الإسلامي هذه المسألة ، وبعده رفع « محمد بن عبد الوهاب النجدي » راية المعارضة .

إن إحدى نقاط الاختلاف بين الوهابيين والفرق الإسلامية الأخرى ، يكمن هنا . فإنهم كبقية المسلمين قد قبلوا الشفاعة باعتبارها مبدءاً إسلامياً ، ويقولون أن الشافعين سوف يشفعون مذنبوا الأمة يوم القيامة ، وللرسول الأكرم (ص) في هذا الحقل الحصاة الأوفر . ويقولون في نفس الوقت :

« لا يحق لنا أبداً أن نبتغي منهم الشفاعة في هذا العالم » .

وغالوا في هذا الموضوع إلى درجة أن عفة الكلام هي حائل دون نقل أحاديثهم ، وملخص حديث هؤلاء هو أن :

لرسول الإسلام (ص) وبقية « الأنبياء » و « الملائكة » و « الأولياء » لهم « حق الشفاعة » في يوم القيامة ، ولكن يجب ابتغاء الشفاعة من « مالك الشفاعة » و « المخول بها » حيث هو « الله » ، وقول : « إلهي ، اجعل الرسول وسائر عبادك الصالحين شفعاء لنا في يوم القيامة » ، بيد أنه لا يحق لنا أن نقول : « يا رسول الله ، نريد منك أن تشفع بحقي » ، لأن الشفاعة هي شيء لا يقدر عليها شخص غير الله تعالى .

لقد حرم الوهابيون بالأدلة الخمسة ، التشفع بالشافعين الصالحين . فنحن قبل أن نبحث أدلة هؤلاء ، نتناول المسألة نفسها من وجهة نظر الكتاب والسنة والعقل بالدراسة ، ونبتهل إلى الله جلّ جلاله أن يردعنا في هذه الدراسة من الأفكار اللاصحيحة .

الأدلة على جواز التشفع بأولياء الله تعالى :

عندما نعتبر حقيقة الشفاعة نفس دعاء الشفيع بحق المذنبين ، فيكون ابتغاء الدعاء من الأخ المؤمن ، وكيف الحال وصولاً إلى الأنبياء والأولياء الإلهيين ، أمراً محبذاً ، وتكون الدراسة السابقة قد فرغت جيداً من عبء هذا العمل .

فإن كان الوهابي يعتبر الدعاء من الأخ المؤمن ممكناً ، لا مناص أن يحسب التشفع بالشفيع الحي أيضاً بدون مانع وممكناً ، وإن كان هو يعتبر ابتغاء الشفاعة من الحي غير ممكن ، يضطر أن يعتقد للشفاعة معنى غير الدعاء .

هناك في الأحاديث الإسلامية وسيرة الصحابة حالات جلية تثبت طلب الشفاعة من « النبي الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم - بصورة ملية ، تشير إلى البعض منها :

١ - يقول أنس بن مالك :

« سألت النبي أن يشفع لي يوم القيامة فقال : أنا فاعل .
فقلت : فأين أطلبك ؟ فقال : على الصراط »^(١) .

يطلب أنس بن مالك بلطافة سجيّة من « النبي الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم - الشفاعة ، ويسأل عن مكانه ، فيجيب النبي ، قائلاً :

على الصراط ، ويخطر بباله أبداً أن هذا العمل يناقض مبادئ

(١) سنن الترمذي ، ج ٤ ص ٤٢ ، باب « ما جاء في شأن الصراط » .

التوحيد وغيرها ، ويتقبل النبي ذلك أيضاً ويعطيه البشارة .

٢ - يطلب « سواد بن قارب » الذي هو من أنصار النبي الأكرم « - صلى الله عليه وآله وسلم - عبر أشعار ابتغاء الشفاعة ، ويقول :

وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة بمغني فتيلاً عن سواد بن قارب^(١)

من الممكن أن يقول وهابي : أن جُل هذه الطلبات هي متعلقة بزمن حياة الشفيع ، وأن صواب طلب كهذا لا يشهد على إمكانية طلب الشفاعة في حالة الممات . بيد أن الإجابة على هذا التساؤل واضحة أيضاً ، لأنه ناهيك عن أن الوهابي يعتبر الشفاعة حرام تماماً ، فالموت والحياة ليسا ملاك التحريم ، ويصبح ملاكاً للعبث واللاعث .

ويستخلص من الأحاديث الإسلامية ، أن أصحاب النبي (ص) كانوا بعد وفاته يطلبون منه الشفاعة دائماً .

٣ - عندما فرغ « أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » - عليه السلام - من تجهيز « النبي الأكرم » - صلوات الله عليه - ، آمال الغطاء عن وجه النبي ، وقال : « بأبي أنت وأمي (طبت حياً وطبت ميتاً) . . اذكرنا عند ربك »^(٢) .

إننا نعتقد أن البحث والنقاش في هذا القسم - استناداً إلى

(١) « قاموس الرجال » ، حاشية موضوع « السواد » .

(٢) « نهج البلاغة » ، ج ٢ الصفحة ٢٥٥ ، محمد عبده ، الخطبة ٢٣ و « المجالس للمفيد » ، باختلاف طفيف .

البحث السابق - سوف يطيل بنا الحديث ، والأفضل أن ندرس أدلة المخالفين بشكل مقتضب :

فهؤلاء يستدلون وبأدلة مختلفة على تحريم طلب الشفاعة ، حيث نشير أدناه إلى جميعها :

أ : التشفع شركٌ

ليس للأنبياء وأولياء الله في هذا العالم حق الشفاعة ، بل أن لهم هذا الحق فقط في الآخرة ، فلو تَوَسَّطَ أي شخص عبداً من عباد الله بينه وبين الله تعالى ، ويطلب منه أن يشفع له في الحق ، فإنه يتعرض للشرك . ويجب علينا أن نقول :

« أَللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ تَنَالُهُ شَفَاعَةُ مُحَمَّدٍ » .

ولا يحق لنا أبداً أن نقول :

« يا محمدُ اشفع لنا عند الله » .

صحيح أن الله عز وجل منح النبي الأكرم (ص) حق الشفاعة ، ولكنه منعنا من مطالبة ذلك منه ، بل يتوجب علينا أن نطلب الشفاعة من الله ، حيث أن الشفاعة وهبت له .

الإجابة :

إن التوحيد في العبادة حيال الشرك في العبادة هو أحد أركان التوحيد الذي حظي بالأهمية في القرآن ، بيد أن جوهر الكلام يكمن هنا ، هل أن أي نوع كان من أنواع الدعوة ، ودعوة المقابل وطلب

شيء منه هو عبادة ، أو أن لهذه العبادة معنى خاص ، وتلك هي دعوة وطلب وإظهار المذلة والخضوع لشخص ما ، وأن نعتبره « المتصرف بلا منازع » في أمور الدنيا والآخرة ، وبتعبير آخر أن نعتبر الله : الله الكبير والله الصغير ، أو الله الحقيقي والله الخيالي . ويطلقون كلمة الله على كائن يكون خالق العالم ، أو أن يكون مالكا لشأن من شؤونه ومخولة إليه ، كما لو كان مالك مقام « الرازقية » أو « المغفرة » ، وأو « الشفاعة » . ولكن حينما يطلب شخص من شخص شيء بهذا الشكل ، يقولون أنه قد عبده ، وليس طلب الشفاعة من الشافعين التقات بهذه الصورة أبداً ، وإنما هو من وجهة نظر أن هؤلاء هم العباد المقربين لساحة الله القدسية ، وأن دعاء هؤلاء في محضر الله يحظى بالإستجابة ، وبكلمة أخرى أن الله سمح لهؤلاء أن يشفعوا في ظروف معينة .

أن توضيح هذا كون الآيات القرآنية تصرح بجلاء على أن الأشخاص الذين يصرحون بالحق والحقيقة ، سوف يشفعون يوم القيامة ، وهنا حيث يقول :

﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾^(١) .

أن لفظة « إلا » التي هي من حروف الإستثناء تصرح جلي على عمل تلك الصفوة للشفاعة ، التي تصرح بوحداية الله سبحانه وتعالى .

(١) سورة الزخرف : الآية ٨٦ .

والآن يطرح هذا السؤال : والآن حيث أن الله قد وهب جماعة من أوليائه حقاً كهذا ، وسمح لهم بأن يشفعوا ، فما المانع أن يطلب الشفاعة من أمثال هؤلاء ؟ في هذه الحالة ، حينما يكون المطلوب منه مستوفياً لشروط الشفاعة ، وفي عداد الأشخاص الذين سمح لهم الله لأن يقوموا بالشفاعة لهؤلاء ، فإن طلبه يُقبل ، وبغير هذه الحالة ، فهو مرفوض .

مضحك أن يقول رئيس فرقة الروهابيون :
« إن الله وهب لأوليائه حق الشفاعة ، ولكنه منعنا عن المطالبة بذلك »^(١) .

أولاً : في أي آية منعنا الله من طلب الشفاعة من الشافعين الصالحين ؟ فإن كان هذا المنع بسبب أن طلباً كهذا هو شرك ، فليس طلباً كهذا عبادة المقابل أبداً ، وإن كان من مناحي أخرى ، فسوف يوضع موضع الدراسة بعدئذٍ .

ثانياً : أن هذا العمل هو نوع من تناقض في القول ، فإذا أعطى الله حقاً كهذا لأوليائه ، فهو من أجل أن ينتفع الآخرين من ذلك الحق . فهل صحيح أن يقال للأشخاص الذين من أجل أن ينتفعوا ، وهب الحق لأولياء الله : لا يحق لكم أن تطلبوا الاستفادة من هؤلاء ؟!

ب - كان شرك المشركين لتشفعهم بالأوثان
كان شرك المشركين بسبب أنهم طلبوا الشفاعة من الأوثان ،

(١) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٢٤١ - نقلاً عن كتاب « كشف الشبهات » ، تأليف محمد بن عبد الوهاب ، الصفحة ٦٢ .

حيث إن الآية التالية تصرح على ذلك :

﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾^(١) .

بناءً على هذا فإن أي نوع من طلب الشفاعة من غير الله هو شرك ، وسيكون عبادة للشفيع .

الإجابة :

أولاً : بمقتضى « واو العطف » في عبارة « ويقولون » ، إن عبادة هؤلاء كانت غير طلب شفاعتهم . فإن كان طلب شفاعة عبادة هؤلاء ، فإن لفظة « الواو » سوف تكون إضافية .

ثانياً : أن هؤلاء كانوا يعتبرون الأوثان آلهة صغار ومتصرفون بدون منازع في أمور الدنيا والآخرة . فلهذا فإن أي نوع من الطلب المشفوع بهذه العقيدة ، سيكون عبادة الشفيع ، في حالة أن المسلمين يعتبرون الشافعون التقات ، عباد الله المقربين ، حيث أنهم بدون سماحه لا يقومون بعمل ، ففي هذه الحالة كيف يمكن استنتاج الحكم موضع الدراسة من خلال الآية ؟!

ج - طلب الحاجة من غير الله حرام

أن دليل هؤلاء الثالث ، هو أن طلب الحاجة من غير الله هو حرام ، فالقرآن الكريم يقول :

(١) سورة يونس : الآية ١٨ .

﴿ فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾^(١) .

﴿ أدعوني أستجب لكم ﴾^(٢) .

الإجابة :

لقد اتضح مفاد الآيات من الأبحاث الأنفة الذكر ، فالمقصود من الدعوة في هذه الآيات ليس طلب الحاجة سواء الدعاء أو غيره ، وإنما المقصود هو عبادة غير الله ، وأن لفظة « مع الله » في الآية الأولى وذيل الآية هو في الآية الثانية ، لأن ذيل الآية الثانية هو كما يلي :

﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾^(٣) .

وليس للآيات غير هذا الهدف ، إنكم غير الله تعبدون . وإن كان لها مفهوماً واسعاً ، بحيث أنها تشمل الطلبات أيضاً ، المقصود هو ذلك القسم من الدعوات أن الإنسان يعتبر المقابل الله ، ومن ثم يطلب الحاجة منه .

د - الشفاعة هي حق خاص بالله تعالى

يستنتج من آيات القرآن ، إن الشفاعة هي حق خاص بالله ، وهنا حيث يقول :

﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً

(١) سورة الجن : الآية ١٨ .

(٢) سورة غافر : الآية ٦٠ .

(٣) سورة غافر : الآية ٦٠ .

ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً ﴿١١﴾ .

الإجابة :

لدى أخذ عبارات الآية بنظر الإعتبار ، يتضح أن هدف الآية هو نفي الشفاعة من الأوثان الخشبية والحجرية والمعدنية ، وليس نفي الشفاعة من الشافعين الصالحين ، حيث صرحت بشفاعتهم في الآيات الأخرى ، لأن :

أولاً : يُفهم من عبارات « لا يملكون » و « لا يعقلون » أن حق الشفاعة هو من الشخص الذي يكون مالكاً لحق الشفاعة ، وأن يكون كذلك واعياً بعلمه ، وأن الأوثان موضع نظر هؤلاء تفتقد لكلا هذين الشرطين ، فليسوا واعين بعملهم ، ولا يملكون الشفاعة نفسها ، ففي هذه الحالة ، يكون مفاد جملة ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ هو أن الشفاعة ملك الله ، وليس ملك الأوثان الخشبية أو المعدنية . وكأنه يقول :

« لله الشفاعة جميعاً لا للأوثان والأصنام » .

ثانياً : وإن حق الشفاعة بشكل « المالكية » و « المملوكية » هو من عند الله فقط ، وليس « الأولياء الإلهيين » ، « مالكي » الشفاعة ، وإنما « مآذنون » بذلك . وعلى هذا فلا مانع أن يكون الله « مالك الشفاعة » ، وأن يشفع الآخر « بسماحه منه » .

(١) سورة الزمر : الآيات ٤٣ و ٤٤ .

الخلاصة :

ليس المقصود من الجملة المذكورة أن الله هو الشفيـع الوحيد ، ولا غيره ، لأنه لا مجال للشك أن الله لا يعمل ، الشفاعة بحق شخص أبداً ، وإنما المقصود هو أن الله مالك أصل الشفاعة ، وإن تواجد شفيـع آخر أيضاً ، فهو بإذن وسماح منه . وإن لله هذا الحق « أصالة » ولغير الله « نيابة » . ففي هذه الحالة لا علاقة للآية بالمدعي المقابل .

هـ - بطلان التشفع بالميت

إن الإجابة على هذا الإحتجاج اتضحت من خلال الأبحاث السابقة ، وليس طلب الشفاعة من الروح المجردة ، ومعرفة أن الله يصفه بجملة « بالمؤمنين رؤوف رحيم » باطل ، وقد قلنا في الماضي أن علماء الإسلام قد عمموا مفاد الآية « ولو أنهم إذ ظلموا . . . » ، والذي يشتمل على كلتا الحالتين .

و - يعتبر الله تعالى أن الأموات غير قابلين للتفهيم

أنهم في هذا الإستدلال ، يستدلون بالآيات التالية :

﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحورور وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير ﴾^(١) .

﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا

(١) سورة فاطر : الآيات ١٩ - ٢٣ .

مدبرين ، وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن
بآياتنا فهم مسلمون ﴿١﴾ .

الإجابة :

لقد أوضحنا هدف ومفاد الآية في كتاب « أصالة الروح » في
بحث الارتباط بالأرواح المقدسة ، ولن نكرر ذلك مرة أخرى (٢) .

ونذكر بشكل مقتضب : أن هذه الفئة تدخل في تخطئة الفرق
الإسلامية الأخرى ، من باب الشرك ، وتظهر من أجل تكفير الآخرين
بمظهر مناصري التوحيد ، ولكنهم قلبوا باستدلالهم هذا قلبوا وجه
الحديث ، ووضعوا أمامهم موضوع الغاء الإهتمام بالأولياء . ولكنهم
غفلوا تماماً أن :

أن الأولياء الإلهيين أحياء بمعونة الأدلة العقلية والنقلية (٣) .
وليس هدف هذه الآيات سوى أن الأجساد الهامدة في التراب غير قابلة
للتفهم ، وأن كل جسد انفصلت عنه الروح يخرج عن إطار
الإستيعاب والفهم ، ويتحول إلى جماد .

بيد أنه يجب الالتفات إلى أن طرف الخطاب ليسوا أجساداً
مخفية في القبور ، وإنما نتحدث نحن بذلك الأرواح الزهية والحية
التي تقضي مع أجساد البرزخ في عالم البرزخ ، ويتصرح القرآن هي

(١) سورة النمل : الآيات ٨٠ و ٨١ .

(٢) العودة إلى الكتاب المذكور ، الصفحات ٢٠٧ ، ٢١٨ .

(٣) الأدلة القرآنية بشكل الماضي .

حية ، ونطلب منها الشفاعة ، وليس بالجسد المخفي في الأرض .
 وإن كانت الأموات والأجساد المخفية في قلب الأرض بعيدة
 ومنعزلة عن أطر التفهيم ، فليس دليلاً على أن أرواحهم ونفوسهم
 الطيبة والطاهرة ، والتي حسب نصوص القرآن حية ترزق في العالم
 الآخر ، غير قابلة للتفهم .

وإذ إننا نحیی ، أو نطلب الشفاعة ، أو نتحدث ، فإن مقصدنا
 هو مع الأرواح الزكية والحية ، وليس بالأجساد المخفية في قلب
 الأرض . فإن نذهب لزيارة قبرهم وبيتهم ومنزلهم الصغير ، فإن ذلك
 يعود إلى أننا نروم من خلال هذا الطريق أن نخلق الإستعداد في أنفسنا
 لكي نخلق معهم علاقة روحية ، وحتى لو عرفنا أن أجسادهم تحولت
 إلى تراب (رغم أن الروايات الإسلامية تصرح على الضد من ذلك) ،
 فإننا نوجد أيضاً هذا النوع من المشاهد ، لكي نحصل من خلال هذا
 الطريق الإستعداد للعلاقة مع الأرواح الطاهرة .

فضلاً عن هذا ، فإن لزيارة قبور هؤلاء علامات إيجابية وبناءة ،
 سنوضحها حينما يسمح الوقت لذلك .

إلى هنا تيسر لنا أن نشرح قسمين اثنين من مجموع الأبحاث
 الخمسة ، وقد حان الوقت الآن لشرح بحث « التوسل » والذي يشكل
 البحث الثالث .

القسم الثالث

التوسل بالأنبياء والصالحين

لقد اكتمل البحث حول طلب الحاجة والشفاعة من الأولياء الإلهيين ، بشكل ما واتضح أن طلب شيء من الأنبياء والصالحين ، في حالة الحياة كان أم في حالة الممات ، ليس شركاً ولا حراماً . وقد حان الوقت الآن ، لأن نبحت ونتحدث حول التوسل بالأولياء حيث أن فئة الوهابيين تخالف ذلك بشدة .

إن « التوسل » بـ « أحياء الساحة الإلهية » يتم من خلال صورتين التاليتين :

١ - أن نهتم بـ « الأولياء الإلهيين » ، وأن نتخذهم « واسطة » بين أنفسنا وخالقنا ، ونتوسل إلى ذات هؤلاء ، ونقول :
« اللهمَّ إِنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ (ص) أن تقضي حاجتي » .

٢ - أن نأخذ بنظر الاعتبار مقام هؤلاء ومكانتهم واحترامهم عند خالق العالم ، ونجعل ذلك وسيلة ، ونقول :
« اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِجَاهِ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَحُرْمَتِهِمْ وَحَقِّهِمْ عَلَيْكَ أن تقضي حاجتي » .

وإذا حلفنا بالله تعالى في مقام التشفع لمقام ومكانة الصالحين ،
فلو أن هذا هو أيضاً نوع من التوسل بالأولياء الإلهيين ، ولكن لأن
الوهابيين وضعوا ذلك موضع البحث بأشكال منفصلة ، فنحن أيضاً
سنضع ذلك موضع البحث بأشكال مستقلة أيضاً .

والآن يتلخص بحثنا في صورتين اثنتين :

١ - التوسل بذات الأولياء الإلهيين .

٢ - التوسل بمكانة وحرمة هؤلاء .

وأن كلتا الصورتين من وجهة نظر الوهابيين هي حرام ، وأنا قبل
أن نطرح الأدلة على صحة توسل كهذا من القرآن والحديث ،
يتوجب قبل ذلك أن نبين أدلة المخالفين ، ليتجلى بأي دليل أو أدلة !!
حرّم هؤلاء ذلك ؟!

لقد أشار « محمد نسيب الرفاعي » مؤلف كتاب « التوصل إلى
حقيقة التوسل » في قسم « التوسل حرام وممنوع » إلى أوجهٍ لتحريم
ذلك ، حيث أننا سوف نضعها جميعاً موضع البحث والتحليل^(١) .

الدليل الأول :

« لو كان مشروعاً » حقيقة ، لذكره الشارع في زمرة ما ذكره
وحضّ الناس عليه وليس معقولاً أن يهمله الله تعالى ولا يبلغه رسوله
ولا يعمل به الصحابة والقرون الخيرة ، إذن فعدم وجوده لا في كتاب
ولا سنة دليل على عدم مشروعيته .

(١) العودة إلى الصفحات ١٧٨ - ١٨٧ من الكتاب المذكور .

الإجابة :

إن ملخص الاستدلال هو لكون أن التوسل بالأولياء لم يرد في الشريعة المقدسة ، فإن القيام بذلك تحت عنوان « البدعة » سيكون حراماً .

لقد عرّف العلماء ، البدعة بالشكل التالي :

« إدخال ما ليس من الدين في الدين » .

والبعض منع ذلك مفهوماً أشمل ، ويقول :

« إدخال ما لم يُعلم من الدين في الدين » .

على أية حال ، فالبدعة هي الشيء الذي ندخله الدين بمعرفة أنه ليس جزءاً من الدين ، أو الشك في أنه جزء الدين أو ليس جزء منه . ولنرى الآن ، هل أن هذا التعريف يشمل حال التوسل أم لا ؟

أولاً : تستدل جماعة بالإعتماد على الأنبياء والأولياء والآيات والأحاديث المنقولة عن « الرسول الأكرم » وأهل الرسالة ، ويعمل صحابة الرسول الذي يحكي عن دخول ذلك في الشريعة ، تستدل على مشروعية هذا العمل ، ويخرج موضوع البحث وبوجود أدلة كهذه ، عن تعريف البدعة ، وسيكون ضمن أمور ، حيث « علم أنه من الدين » ولكي لا تأخذ الأدلة المجوزة على « التوسل » موضع الدراسة . فلا يمكن أبداً اصطباغ ذلك بصبغة البدعة . المؤسف هو أن الكاتب قبل أن يبحث عن أدلة المقابل ، دخل بهرواة الخدعة ، المعركة مع المقابل ، في الوقت الذي يجب أن يستفاد من هذه الحربة بعد انتقاد أدلة المقابل .

ثانياً : إنّ أسلوب الشرائع السماوية ، وخاصة شريعة الإسلام المقدسة ، هي أن يطرح الأحكام الإلهية بصورة الأمور الكلية ، لكي يميز علماء الشريعة اعتماداً على دساتير الإسلام الكلية ، المشروع عن اللامشروع ، وعلى هذا فلا مناص علينا أن نأخذ محصلة القوانين الإلهية في القرآن والسنة بنظر الاعتبار ، ليتجلى إنّ التوسل بالأولياء هو ضمن أي من الدساتير الإلهية . وليس صحيحاً أبداً أن نقول : أن حكم « التوسل » في الشريعة الإسلامية لم يبين ، بل أبداً تبين حكم ذلك في الجواز أو عدم الجواز ، ومن واجبنا أن نستنبط حكم ذلك من خلال القوانين الكلية .

بعبارة أخرى ، فإن وظيفة المحقق ليس أن يتمسك متوسلاً بـ « الإحتياط » بدلاً عن مطالعة كتاب أو سنة أو تطبيق القوانين الإلهية الكلية ، وأن يقول لكون أن مشروعية التوسل لم ترد في الكتاب والسنة ، فإذن هي حرام ، وإنما بمقتضى أن جُلّ وظائف العباد ومتطلباتهم وأحكامهم وأعمالهم وردت في الكتاب والسنة إلى يوم القيامة ، بل يجب بالمحاولة والتنقيب يصدد الإستفادة في استنباط حكم التوسل من القرآن والسنة ، ليتضح كيف إنّ الكتاب والسنة بيّنا حكم ذلك .

أن ضمير كل شخص يصرح على أن « التوسل بالأولياء » مثل « السرقة » ليس حرام في الذات ، بل إن كان حراماً ، فهو بسبب أنه يعتبر من إحدى مصاديق وجزئيات الشرك .

وعلى هذا لا مناص بدلاً من الإلتزام بالحدز ، والذي لم يرد في شريعة الإسلام المقدسة ، أن نتابع هذا الموضوع عبر تحري خاص ،

وهل أن التوسل بالأولياء الإلهيين موافق لمعايير التوحيد والوحدانية ، أم مخالف لها ؟ وبعبارة أخرى فإنه يعد من مصاديق الشرك ، أو أن لا علاقة له بالشرك ؟ وهل جعل بواسطة الأنبياء والأولياء واسطة لعبادة الأوثان ، أو أن بين هذين العاملين توجد فراسخ من الفواصل ؟ وباقتضاب ، فإن ملخص البحث يكمن في هل أن عملاً كهذا ينسجم مع التوحيد ، أو أنه يعتبر فرعاً من عبادة الأوثان ؟ فالمؤسف أن الكاتب بدلاً من التحقيق في هذا القسم ، فقد أثار موضوع الإحتياط ، واتخذ من الشيء الذي لم يذكر في الشريعة ، وثيقة على تحريم ذلك .

ثالثاً : لا بدعة في أن المتوسل بتوسله لا يستنجد بأحد غير الله ، ولا يطلب الحاجة من أحد غيره ، وأن عمله يشتمل آيات تدعوا الإنسان إلى العناية بالله تعالى^(١) ، والواقع هو أنه بشأن طلب الحاجة منه ، وسَط أحد مقربي ساحته القدسية ، ويروم من خلال هذا أن يحصل على لطف الله سبحانه . والآن إذا كان عمل كهذا حراماً ، لكان يتوجب أن يذكر في الكتاب والسنة .

وبعبارة أخرى : أن الإنسان في حياة هذا العالم وسَط دائماً لنفسه شخصاً أو جماعة بشأن الحصول على اهتمام وعطف مكانة أسمى ، ومن خلال هذا الطريق يحصل على عطف ولطف المقام الأعلى ، ويستفاد لهذا العمل من « نداء الفطرة » ، و « بدافع الطبيعة » :

(١) أن مشروعية هذه العبادات الذاتية والفطرية لا تحتاج إلى الدليل القرآني والحديث ، وأن تفصيل هذا القسم تقرأونه في نفس القسم .

فهو على هذا الأساس يتوغل - من حيث لا يشعر - في الأمور الدينية ، وفي الحصول على الألفاظ الإلهية أيضاً ، ويتخذ من مقربي ساحته القدسية ، واسطة لنفسه ، فحينما يكون عملاً كهذا حراماً وغير مشروعاً ، يجب أن يعتنى به في الكتاب والسنة ، وإن لم يكن في القرآن والحديث دليل على تحريم ذلك ، يجب اعتبار ذلك تصريحاً على مشروعية هذا العمل .

إن الكاتب يتخذ من دليله نتيجة مقلوبة تماماً ، لأنه إذا كان عدم وجود حكم التوسل في الكتاب والسنة دليلاً على جواز ومشروعية ذلك ، فسوف يكون تصريحاً على تحريم ذلك ، خاصة أن هذا العمل يتخذ بدافع الفطرة وقيادة الطبيعة ومقارنة الأمور المعنوية بالأمور المادية ، كونها مسألة مقبولة لنوع البشر ، فلو كان هذا العمل عملاً غير مشروعاً ، فإن اللطف الإلهي يستوجب ، من أجل خلاص العباد من مخالب العمل الحرام ، أن يوجه هؤلاء إلى مشروعية ذلك ، وألاً يقوم بالعمل بصمت .

وبسبب هذه المناحي في مواضيع مشابهة لبحثنا ، يضع القرآن الكريم وسنة النبي ، الأصبع على « الحرامات » ولا « الحلالات » ، يبين الحرامات وليس الحلالات ، لأن غرائز الإنسان تدعو إلى الأعمال التي تتوافق معها ، وحرى في هذا الوسط أن يتبين ما هو حرام وأحوج إلى ضابطة الغرائز ، وليس ما هو حلال ، لأن الحلالات لا يعوزها البيان ، وأن الغرائز نفسها في توجيه الإنسان صوب ذلك هي كافية .

بالرجوع إلى آيات القرآن والأحاديث الإسلامية يتجلى أنه كانت

في الأغلب (بالطبع في الأغلب) حملة الأنبياء الدعائية تكمن في بيان الحرامات والممنوعات، وليس في بيان المجوزات والمشروعات ، لأن الحالات اللامشروعة نسبة إلى المشروعة كانت أقل ، وبمعرفة الحالات الممنوعة ، فإن حالات مشروعيتها تتجلى لنفسها :

يقول القرآن الكريم :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَ بِهِ لَغَيْرِ اللَّهِ ... ﴾ (١) .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ... ﴾ (٢)

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ... ﴾ (٣) .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٤) .

يتضح من خلال العودة إلى الآيات القرآنية والأحاديث الإسلامية وأخذ نهج الأنبياء بنظر الاعتبار ، أن هدف هؤلاء هو بيان الحرامات والممنوعات ، وإذا كان ما ينقاد إليه الإنسان بدافع الفطرة حراماً ، فإنه يبادر إلى تبيان ذلك ، وليس أن يبينها الحرامات من رأسها إلى أخمص قدميها وبلا انقطاع .

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١١٩ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٥١ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٣٢ .

العبادات هي أمور توفيقية

يمكن أن يقال : أن موضوع « العبادة » هو على عكس الكلام السابق . إن عبادة الله بأي كيفية كانت ، يعوزها سماح الشارع ، وإلى أن لا تمنح العبادة بمزاياها الكمية والكيفية الرسمية من قبل الله سبحانه وتعالى ، لا يمكن بها التقرب إلى الله ، ولذا فإنه في العبادات الواجبة والمستحبة ، وإلى أن لم يدخل دليل ، لا يمكن الإتيان بذلك بهدف الدخول في المحل ، أو عبادة الله والتقرب منه من خلال القيام بذلك .

الدليل الأول :

واضح وجلي تماماً كونهم يقولون : أن « العبادات توفيقية » ، وهي بحاجة إلى سماح الشارع ، والمقصود هي العبادات والمراسيم الخاصة ، كالصلاة ، والصيام ، والحج بشكل خاص ومخصوص بنفسه ، حيث أنه لا يمكن القيام به بدون سماح الله سبحانه ، ولا العبادات الذاتية كالتواضع والسجود أمام الله تعالى ، والتذلل والإستغانة بمحضره القدسي ، حيث أنها تسمى في مصطلح العلماء بـ « العبادات الذاتية » وأن مشروعية هذا النوع من العبادات لا تحتاج إلى دليل مستقل ، وأن دافع الفطرة في هذه الحالات كاف ، وإذا كان نوع من هذه الأعمال أو كيفية منها حرام في حالة ما ، يجب أن تتوضح من قبل الله عز وجل .

أن الشخص المتوسل لا يقوم في دعائه ، بعمل سوى التواضع والتذلل بعبدة الله سبحانه ، وهذه هي العبادة الذاتية نفسها والتي لا تحتاج مشروعيتها إلى دليل ، وليس لهذا الموضوع علاقة بتوفيقية

العبادات التي تتم بشكل مراسيم بكم ونوعية خاصتين . ولأن دعاء الله تعالى ، من خلال التوسل بأعزاء وفضلاء عتبه المقدسة ، طبقاً لدافع الفطرة هو أمر شائع في أوساط أمم العالم ، وموضع ابتلاء جميع الناس ، فإن اتخاذ الصمت في مواضع كهذه يعني التوقيع على ذلك ، وحسب مصطلح « التقرير » هي وثيقة على كونه صحيحاً وثابتاً .

الدليل الثاني :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ^(١) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ^(٢) .

فيقول هو وعلى حسب ما يستدل به بالآية :

« التزلف بذوات الأشخاص ردّه الله سبحانه ولم يقبله وإنه تعالى قد عاب عليهم في هذه الآية أمرين اثنين : عاب عليهم عبادة الأولياء من دونه وعاب عليهم محاولتهم القربى والتزلفى إليه تعالى بالأشخاص

(١) « الدين » في اللغة العربية يعني « الطريقة » و « الشريعة » وبمصطلح القرآن هو « الشعب » ، بيد أنه في الآية المذكورة ، وقسم آخر من الآيات بالمناسبة ، يعني « الإطاعة » و « الإقتداء » للدين ، مثل :

﴿ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ (سورة النساء : الآية ١٤٦) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ (سورة النساء : الآية ١٧١) .

﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ٢٩) .

(الرجوع إلى كتاب « مفردات الراغب » ، الصفحة ١٧٥) .

(٢) سورة الزمر : الآية ٣ .

والعبادِ المخلوقين فكلا الأمرين في الآية عيبٌ وذنبٌ وكلاهما باطلٌ»^(١) .

الإجابة :

إن الإستدلال بهذه الآية ، المقتضية على تحريم التوسل بالأولياء الإلهيين ، هو من الإستدلالات الغريبة والعجيبة جداً . إن الوجهة المشتركة الوحيدة بصدد التوسل بالأولياء الإلهيين مع حالة الآية ، هو أنه في كلتا الحالتين توجد واسطة ، وأن وجهة مشتركة كهذه ليست كافية في الإستدلال ، لأنه هناك اختلافات جوهرية بين عمل المشركين وعمل عباد الله المتوسلون بالأولياء ، والتي تميز كلا العاملين عن بعضهما ، لأن :

إذا كانت العناية بالله عز وجل ممنوعة من خلال الواسطة وبصورة مطلقة ، فيجب بالضرورة أن يكون طلب حاجة من الله عن طريق ابتهاج شخص مؤمن ، أيضاً حرام وممنوع ، في الوقت الذي اعتبره جميع المسلمين وحتى الوهابيون أنفسهم والسيد الرفاعي كذلك ، مشروعاً واستدلوا على صحته وقوته بالقرآن الكريم والحديث . فإذا كان اتخاذ الواسطة محرماً حقاً ، ولا يجب أبداً أن نجعل من غير الله تعالى واسطة لنا ، ولا بد أن نطلب الحاجة من الله جل جلاله وبشكل مباشر ، فلماذا إذن يعتبرون التوسل بالله عبر رجل الدين ، عملاً مشروعاً ؟!

وبعبارة أخرى ، إذا كان الإستدلال بالآية المقتضية على تحريم

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ١٧٠ .

التوسل بالأولياء الإلهيين ، من خلال وجهة النظر هذه المتمثلة في أنه لا يجب أبداً إيجاد الوساطة لدى طلب الحاجة ، فلا بد إذن اعتبار جميع أنواع التوسل بأسماء وصفات الله سبحانه والتوسل بالأخ المؤمن وتوسل الإنسان بعمله الصالح ، اعتبارها غير مشروعة .

بيد أنه إذا كان أساس الإستدلال ، أنه لا يجب أبداً أن نتخذ من الذوات والأشخاص ومخلوقات الله تعالى واسطة (وليس دعاء الأفراد المتدينين) ، فالجواب هو أنه لا يستتبع من الآية معنى شاملاً كهذا ، لأن توسل هؤلاء بالأوثان يختلف من عدة أوجه عن توسل عباده بأولياء العتبة الإلهية المقدسة ، ولا يمكن استنتاج الحكم الثاني من الحكم الأول ، وأننا نشير هنا إلى البعض من هذه الاختلافات :

أ - إن أساس التباس الكاتب هو كونه اعتقد أنه قد جرى في الآية المذكورة الإنتقاد من شيئين ، يعني من عبادة غير الله ووساطة مخلوقه ، في الوقت الذي نهى في الآية من شيء واحد ، وهو محاولة التقرب إلى الله عبر عبادة أوثان المخلوق ، والآن نتناول توضيح ذلك .

أن عباد الأوثان ، حسب ما تصرح به الآية ، كانوا يعبدون الوسايطات ، إلى حد أنهم كانوا قد وضعوا عبادة الله جانباً ، ولم يكونوا يعبدون غير الوساطة أحداً ، في الوقت الذي لا يعبد المتوسلين بأولياء العتبة الإلهية أحداً سوى الله عز وجل ، وإنهم لا يعتبرون أولياء الله الصالحين سوى أن لهم مكانة لدى الساحة الإلهية ومقربون إليها نتيجة عبوديتهم لها . ففي هذه الصورة أن هدف الآية هو تحريم التقرب من الله من خلال عبادة أشخاص الله ومخلوقاته ، وليس التقرب من الله عبر الصالحين أو مكانتهم ومنزلتهم .

ارجعوا مرة أخرى واطلوا الآية موضع الحديث ، وتفحصوا ملياً
في مضمونها ، فإن نص الآية الشريفة هو :

﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ﴾ .

تستوجب في موضوع التقرب ثلاثة مواضع ، هي :

١ - المتقرب ،

٢ - المتقرب إليه ،

٣ - المقرب وأساس التقرب .

أن « المتقرب » هو عابد الأوثان نفسه ، و« المتقرب إليه » هو الله سبحانه وتعالى ، و« وسيلة وأساس التقرب » هم عباد الله . وأن
توسيطاً وتوسلاً يكون أساساً للتقرب في عبادة غير الله ، فهو حرام .

فما هي في هذه الحالة يا ترى علاقة مفاد الآية الشريفة بموضوع
حديثنا المتمثل في أن المتوسل لا يعبد شخصاً غير الله ، وبدلاً من
التقرب بالله عبر عبادة غير الله ، يبحث عبر طريق توسيط الصالحين
وتوسيط مكانتهم ومنزلتهم عند الله جلّ جلاله ، عن التقرب .

حينما نقول أن وسيلة وأساس تقرب المشركين ، كانت عبادة
العباد فلا يناقض هذا أن تكون الأوثان أيضاً « مقربة » ، حيث يقول الله
عز وجل في كتابه الكريم « ليقربونا » ، لأن المقرب الحقيقي من وجهة
نظر مشرك ما ، هي العبادة نفسها ، وأن تقرب الأوثان يعني كونها
شقيقة ، حيث أن نتيجة المقرب الأولى هي عبادة هؤلاء .

ومختصر القول أنه أعلن في الآية الشريفة كون أن التقرب من

الله عبر عبادة غير الله حرام وغير مشروع ، وليس التقرب من الله عبر وساطة الصالحين بدون أن يُتخذوا موضع العبادة ، ولم يتم النهي في الآية سوى عن شيء واحد ، وذلك هو التقرب من الله عبر عبادة أوثان وأصنام ومخلوقات الله ، ولا غير ، وليس من شيئين أحدهما عبادة المخلوق والآخر التوسل بالمخلوق .

ب - صحيح أن المشركين كانوا يقومون بعملين اثنين :

١ - إنهم كانوا يعبدون غير الله سبحانه .

٢ - كانوا يتخذون من الأشخاص وسطاء لهم .

بيد أن الضغط الانتقادي موجه على القسم الأول ، وهو أن عبادة الأوثان عمل خطأ وغير مشروع ، وأن الآية بالنسبة إلى القسم الثاني (توسط أشخاص ما عدا عبادتهم) ، لا وجهة نظر لها ، سلباً أو إيجاباً . وإنما يجب في هذا الحقل مراجعة الأسانيد الأخرى من القرآن والسنة ، أو العقل والإدراك : فعندما تتحلى الوساطة بصلاحية أن الإنسان يبحث عن التقرب بوسيلتها ، بدون عبادته ، ففي هذه الحالة لن يكون لتوسل كهذا مانع ، وإذا كان خالياً من صلاحية كهذه ، فسوف يكون التقرب بوسيلته أمر سهو ولا جدوى له .

إن دليلاً على أن الضغط الانتقادي هو على عبادة الأوثان ، ولا وساطة الأشخاص ، هو مستهل الآية نفسه ، حيث يقول :

﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ .

يعني سيتوجب على الناس ألا يعبدوا غير الله تعالى ، وأن الذين اتخذوا لأنفسهم غيره هو ، أولياء ، ويعبدونهم ويطيعونهم ، لكي

يقربونهم عند الله ، فإن هؤلاء لفي ضلال عظيم ، لأن الإِطاعة خاصة بالله عز وجل ، ولا يمكن أبداً القيام بذلك إزاء آخر .

وعلى هذا الأساس فإن منظور الآية هو الإنتقاد من عبادة الأوثان ، وليس محاولة التقرب بوسيلة مخلوقات الله رغم أنها ليست توأماً مع العبادة ، الواسطة نعم ، فقد انتقد في آية أخرى من كلا الموضوعين وبوضوح ، حيث يقول :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾^(١) .

فلو قارنا هاتين الآيتين معاً ، يتضح أنه تم الإنتقاد في الآية الثانية من شيئين لوجود « واو العطف » :

١ - ﴿ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ .

٢ - ﴿ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا ﴾^(٢) .

وإذ يقال في اختتام الآية الشريفة : ﴿ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ . . . ﴾ يريد أن ينتقد كلا الموضوعين الحاويين على « واو العطف » .

(١) سورة يونس : الآية ١٨ .

(٢) لا يستوجب الإعادة إلى الأذهان أنه لا يستنتج من هذه الآية أيضاً ، التحريم توسط الصالحين لأنه إذا تم الذم في حالة واحدة هي جعل الصنم شافعاً ، فإن ذلك لا يدل على ذم جعل الصالحين شفعاء .

بيد أن المذموم في الآية موضوع البحث ، هو عابد غير الله نفسه ، ولو ورد موضوع التوسل في أحاديثهم بشكل تعليل وبيان الحافز لعبادة غير الله ، وأن هدف الآية هو انتقاد المعلول .

ج - أننا نغض النظر عن هذين الجوابين اللذين يشكلان أساس تحليل وتركيب الآية ، ونتخذ ما هو مسلم به وهو أن الآية انتقدت كلا العاملين وبشكل مستقل ومنفصل ، وتسميهما بالمشروع ، بيد أنه لا بد من الأخذ بنظر الاعتبار ، هل أن الآية تنهي عن كل أنواع التوسل بغير الله . لكي يشمل ذلك التوسل بالأولياء والأنبياء أيضاً ؟ أو أنها تنتقد « الأوثان » و « الأصنام » ؟ وفي هذه الحالة لن تكون الآية شهادة على تحريم التوسل بأولياء عتبة الله القدسية^(١) .

لا ريب في أن الآية الشريفة موضوع البحث هي من الآيات المكية ، والمنظور من معبودات أهل مكة وضواحيها ، الخشبية والمعدنية والحجرية ، هو ذلك ، ولقد كان الدين الشائع والرائج بين أوساط الناس في شبه الجزيرة هو عبادة الأوثان الخشبية والمعدنية والحجرية نفسه ، وإذا كانت جماعة منهم تعبد الملائكة أو « عيسى المسيح » - عليه السلام - فهي الأقلية تماماً ، ففي هذه الحالة يمكن القول بشكل حاسم ويقين ، أن منظور الآية هو تحريم الأوثان وليس الأولياء الصالحين .

(١) لأنه ، أولاً : ليس للأوثان والأصنام أي نوع من الكفاءة والأهلية .
 وثانياً : إنهم كانوا يعتبرون الأوثان ، مؤثرات مستقلة ، وحرية تامة في إدارة شؤون العالم ، والمتملكون لمقام الشفاعة ، وقد جاء القرآن الكريم من هذه الحقيقة بتعبير « أناداً » ، وليس للشخص الموحد حيال الصالحين عقيدة كهذه أبداً .

ناهيك عن هذا ، فلم يثبت أبداً أن عبادة المسيحيين للمسيح هي وسيلة للتقرب إلى الله سبحانه ، لأنهم يعتبرون المسيح هو الله وجزء من الله ، وليس كائناً متميزاً عن الله ، لكي يطرح موضوع التقرب .

وأن الدليل الآخر على أن منظور الآية هو فقط عبادة الأوثان الخشبية والمعدنية ، هو أنه تطرح في الآية التي تليها عقيدة المسيحيين والبعض من عقائد عرب الجاهلية ، وبصورة مستقلة ، أنه كان يتراءى لهم ، أن الله ولد كالمسيح أو ملاكاً ، ومن ثم يتتقد ذلك ، أفلا يكون هذا دليلاً ، على أن منظور الآية موضوع البحث هو غير هذه المجاميع ؟ وإليك الآية الشريفة التالية :

﴿ لو أراد الله أن يتَّخِذَ ولدًا لاصطفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . . . ﴾^(١) .

يتضح لدى أخذ هذه الأجوبة الثلاث بنظر الاعتبار ، أن الإستدلال بالآية على تحريم التوسل بالأولياء هو في غاية الضعف وعدم المقدرة ، وليس إلّا حكم الكاتب قبل أوانه ، والذي حتمَّ عليه استدلال كهذا .

الدليل الثالث :

﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرَّبكم عندنا زُلْفَى ، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي

(١) سورة الزمر : الآية ٤ .

الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴿١﴾ .

يقول « الرفاعي » مستدلاً بالآية ، ما يلي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَبُونَ عِنْدَ اللَّهِ ذُرَجَاتٍ وَالَّذِينَ تُضَاعَفُ لَهُمْ حَسَنَاتُهُمْ ، إِنَّمَا تُضَاعَفُ بِأَعْمَالِهِمْ لَا بِالْجَاهَاتِ وَالْوَسَاطَاتِ ﴾ (٢) .

الإجابة :

إننا سثبت بمشيئة الله تعالى من خلال الآيات والأحاديث الإسلامية ، أن التوسل بالأنبياء والأولياء هو من « الأمور المشروعة » ، والذي دُعي إليه في الدين الإسلامي الحنيف ، وبعبارة أخرى فهو عمل صالح يؤديه الشخص المتوسل ، سيدخل « التوسل بالأولياء » في هذه الحالة ، في عبارة « وعمل صالحاً » .

ناهيك عن هذا ، فإذا كان المقصود من « العمل الصالح » هو العمل الوحيد الذي يكون الإنسان « مباشرة » ، فيجب إذن أن يحرم التوسل بدعاء الأخ المؤمن أيضاً ، لأن توسلاً كهذا هو خارج محتوى الآية .

إن الأدلة التي تستلقت اهتمام مؤلف كتاب « التوصل » هي نفس الآيتين الإثنتين اللتين تناولناهما بالتحليل والتوضيح ، بيد أنه كجميع الكتاب الوهابيين ، بالغ بحديثه جداً ، واستدل بحفنة مواضع واهية وضعيفة والتي هي قسم منها خلاصة أفكار « ابن تيمية » والقسم الآخر

(١) سورة سبأ : الآية ٣٧ .

نقلت عن « محيي الدين العربي » ، ونورد كأمثلة البعض من هذه الإستدلالات :

نسج الأوهام بدلاً عن الواقعية

لقد صنع « ابن تيمية » نقلاً عن كتاب « التوصل إلى حقيقة التوصل » ، صنع دليلاً واهياً من جانب أنصار « التوصل » بدلاً عن الواقعية ، ومن ثم طفق بانتقاده ، وفي الوقت الذي لم يتمسك أي من مفكري هذه المدرسة بدليل واهي كهذا ، لكي يباشر هو بصدد الانتقاد منه . فهو يسير حسب المقولة « تقتل بنفسك ، وبفسك تقرأ عليه الفتاحة » في عالم للأوهام ، ويفترض دليلاً ويذهب لمقارعته ، ويطرح مؤلف كتاب « التوصل » ذلك أيضاً بشكل سؤال وجواب حقيقي . ونورد هنا ذلك الدليل الواهي الذي طرح بصورة سؤال وجواب .

حديث عن « ابن تيمية » :

سأل رجل ابن تيمية عن شخصين كانا يتحاوران ، قائلاً : يقول أحد المتحاورين :

« لا بدّ لنا من واسطة بيننا وبين الله فإننا لا نقدر أن نصِلَ بغير ذلك » .

إن مؤلف كتاب « التوصل » اعتقد على ضوء ما يكنه من تضائل خيال ابن تيمية ، أن شخصاً مؤدباً في الحقيقة طرح دليلاً كهذا ، في حين أنه لم يتمكن شخص عليم بمبادئ توحيد الإسلام ومعارف

القرآن ، أن يقول : لا مناص من أن توجد واسطة بيننا وبين الله ، في الوقت الذي يقول القرآن الكريم فيه :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾^(١) .

ويقول كذلك :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾^(٢) .

إنَّ ما يلفت النظر هي الموساة التي تلاها شيخ الإسلام الوهابي في هذا المضمار ، وبرر كلام المتحدث بشكلين ، حبذا أحدهما ورفض الآخر :

« إن أرادَ بذلك أنه لا بُدَّ من واسطةٍ يبلغنا أمر الله فهذا حقٌّ وإن أرادَ بالواسطةِ أنه لا بُدَّ من واسطةٍ في جلبِ المنافعِ ودفعِ المضارِّ مثل أن يكونَ واسطةً في رزقِ العبادِ فهو من أعظمِ الشُّرْكِ » .

الإجابة :

لا بد أن تقول في الإجابة على شيخ الإسلام نفس العبارة التي قالها شخص ثالث حول اختلاف شخصان بصدد إعراب حرف الكاف في كلمة «كدام»(*) الفارسية، أحدهم كان يقول هي «كدام» (بفتح الكاف) ، والثاني كان يقول ، هي «كدام» (بكسر الكاف) ، وقال

(١) سورة ق : الآية ١٦ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

(*) تعني بالعربية : أي .

الثالث ليس أي من « كُدام » (بالضم) ، وإنما نقول يا أيها السيد ابن تيمية ! ليست أي منهما . أن هذه الوسطة لا نريدها من أجل الدعاية للدين ، ولا لقضاء يوم ، وإنما إيلاء الأهمية للوسطة والتوسل إلى النبي ، هو عمل صالح بحد ذاته ، يؤدي إلى أن يستجاب دعاء الإنسان . وبعبارة أخرى ، أن توسط هؤلاء له الأثر في استجابة الدعاء ، وأن سبب التوسل إلى الصالحين وأولياء الله ، خاصة الأنبياء والمعصومين ، هو كالأهتمام بالقرآن الكريم الذي يعتبره جميع المسلمين جائزاً ، وينقلون عن « الرسول العزيز » - صلى الله عليه وآله وسلم - حيث قال :

« مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلْيَسْأَلِ اللَّهَ بِهِ » .

ونسأل الآن ، لماذا تجعلون القرآن الكريم واسطة ؟
فيقولون في إجابتهم : أن التوسل بالقرآن مرهون بتدبر آياته وتطبيقها على نظم الحياة ، وأن عودة ذلك هي أن الإنسان يعتبر حلال ذلك حراماً ، وحرام ذلك حلالاً ، ويسأل الله به حوائجه لتقضى .
وننقل هنا كلمات « الرفاعي » في نفس هذا المجال :

« فَإِذَا قَرَأَ الْمُسْلِمُ الْقُرْآنَ إِنَّمَا يَقْرَأُ وَيَتْلُوا كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَبَارَكَ لِيُذَبَّرَ آيَاتُهُ وَيُطَبَّقَ عَلَى نَفْسِهِ ثُمَّ عَلَى مَنْ يَعُولُ وَيَجْعَلُ الْقُرْآنَ بِمَا فِيهِ مِنْ عَقَائِدٍ وَأَحْكَامٍ وَأَخْبَارٍ ، مَرْجَعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَيُحِلُّ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمُ حَرَامَهُ وَلْيَسْأَلِ اللَّهَ بِهِ حَوَائِجَهُ لَتَقْضَى ^(١) » .

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ٤١ . فإذا كان توسط القرآن المكتوب منه والمطبوع صحيحاً ، فلماذا ليس توسط القرآن الناطق صحيحاً . إن الإنصاف شيء جيد أيضاً .

إن فحوى كلامه ، هو نفس ما قيل .

أننا سوف نوضح في المستقبل لذي الحديث عن صلة مكانة الأنبياء ومنزلتهم بالشخص المتوسل ، هذه الحقيقة أكثر في أن التوسل نفسه يكون أرضية لتكامل المتوسل ، ويضحى سبباً لأن يغتفر له بسبب هذه الجدارة .

يستنتج في الواقع من الأخبار والروايات ، أن التوسل بالناس المعصومين والأبرياء أدى إلى الحصول على الرحمة ، ويكون باعثاً لإستجابة الدعاء . وأن الطريق لتبرير ذلك هو أن هذا العمل نفسه نوع من الإعتناء بالله سبحانه وتعالى ، عبر عباده الجديرون . وإلحكم نموذجاً في هذا المجال ، عما يقوله فقهاء الإسلام في كيفية صلاة « الإستسقاء » :

« الرَّابِعُ صِيَاماً مُشَاءَ خَلِيقَةٍ مُتَذَلِّلِينَ مَتَوَاضِعِينَ خَاشِعِينَ لِلَّهِ وَمَعَهُمُ الصَّبِيَّانُ وَالشُّيُوخُ وَالْعَجَائِزُ وَالذَّوَابُ وَيُبْعَدُونَ الرُّضْعَ عَنْ أُمَّتِهِمْ لِيَكْثُرُوا الصَّيْحَ فَيَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَى لِرَحْمَةِ اللَّهِ » (١) .

ونسأل الآن لماذا يجب عليهم أن يجلبوا معهم الصبيان والشيوخ العجائز والذوَاب ؟ فهل أن ذلك سوى سبب أن يقولوا : يا إلهنا نحن على معصية وخطيئة ، أما هؤلاء فهم معصومين وأبرياء ، فأرحم علينا من أجل هؤلاء . وأن هذا العمل بالحرف الواحد هو ترسيم رحمة الحق والإعتناء بالذات الربوبية ، ويكون أرضية لوقار الدعاء واستجابته .

(١) « الفقه على المذاهب الأربعة » ، المجلد الأول ، الصفحة ٢١٥٩ - ٢١٦٠ .

إن حقيقة كهذه في التوسل بالأرواح المقدسة ذات المكانة والشأن ، والذي كان وجوده أحياناً للناس على وجه البسيطة مأمناً^(١) ، ووصفه القرآن الكريم بـ «رحمة للعالمين» هو متداول وسائد ، وأن مقارنة مكاتنين اثنتين ببعضهما معاً ، ليس بالأمر الهين..

إن الإنسان بدافع الفطرة ، ودون أن يعتني بالنقاشات الوهابية ووساوس ابن تيمية ، فقد اتخذ من الناس المنزهين واسطة له ، وكان من خلال هذا يحصل على رحمة الحق تعالى . لقد نقل جميع المؤرخون وكتاب السيرة عن أبي طالب ، أنه كان يمسك يد النبي الأكرم (ص) بغية هطول المطر ، وكان عن طريقه يطلب المطر .

ولقد نقلوا أيضاً عن أبي طالب القصيدة التالية :

وَأَبْيَضَ يَسْتَسْقِي الْغَمَامُ بَوَجْهَهُ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ^(٢)

وإن الأوضح من جميعها هي الأحداث المتعددة التي وقعت في عهد حكومة «عمر بن الخطاب» حيث أنه كان في سنوات الجفاف يمسك يد عم النبي ، ويذهب إلى المصلى :

« إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بَنِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِينَا فَيُسْقَوْنَ »^(٣) .

(١) ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم﴾ (سورة الأنفال : الآية ٣٣) .

(٢) « صحيح البخاري » ، باب صلاة الإستسقاء (طبع محمد علي صبيح) ، الصفحة ٣٢ .

(٣) « صحيح البخاري » ، الجزء الثاني ، باب صلاة الإستسقاء (طبع محمد علي صبيح) ، الصفحة ٣٣ . ستحدث حول هذه الوقائع في المستقبل .

إن هذا الحديث الذي هو أحد الأدلة على التوسل بالأفراد المقربين إلى الساحة الإلهية - حيث وقع الوهابيون أزاء ذلك في حركة شديدة - يدل على أن التوسل بالأفراد المقربين لا مانع فيه ، بل يدل على أن التوسل بـ « العباس » هو أيضاً بسبب علاقة القرى بينه وبين الرسول العزيز (ص) ، ولهذا قال عمر بن الخطاب : « بَعَمَّ نَبِينَا فاسقنا » .

وباختصار ، ففي التوسل بالصالحين لا مناص من اعتبار أن الإعتناء بالفرد الصالح نفسه وإظهار الرغبة إليه ، نوع من العمل الصالح ونوع من الإهتمام بالله عز وجل .

الدليل الرابع أو حديث عن أبي حنيفة :

« لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ إِلَّا بِهِ وَالِدُعَاءِ الْمَأْذُونُ فِيهِ الْمَأْمُورُ بِهِ مَا اسْتَفِيدَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ » ^(١) .

الإجابة :

أن حديث الإمام الأعظم (!) أبو حنيفة هو مرفوض في الظاهر ، وافترضاً على صحته ، فهو لا يدل على ما يدّعي به الوهابي ، لأن :
أولاً : أن ما يقوله : « لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ إِلَّا بِهِ » .
ليس صحيحاً ، لأنه ليس من الضرورة أبداً أن نسمي الله سبحانه بإسم

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ١٨٠ - سورة الأعراف : الآية ١٨٠ .

« الله » فقط ، حيث يمكن أن نسميه بجميع الأسماء ، وكأن جملة إمام العراق الأعظم ، قد حرّفت .

ثانياً : ليس مفاد الآية سوى أن نسمي الله عز وجل بأسمائه ، وألا نقوم بـ«الإلحاد» في أسمائه . وأن معنى الإلحاد في الأسماء هو أن نسميه بالأسماء والصفات التي لا تناسب وقارته وشأنه ، ولهذا يقولون ، أن « أسماء الله توقيفية » ، يعني لا يمكن أن نسميه بإسم من لدنا ، وإنما يجب تسميته ووصفه بنفس الأسماء والصفات التي تلاها نفسه ووصفها .

والآن نسأل القارئ العزيز : ما علاقة هذه الآية بما يدّعيه الوهابي ؟ أيسمي المتوسل ، الله بغير أسمائه الواقعية ؟ ألم يقل : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ » ؟ ألم يسمي عمر بن الخطاب لدى الإستسقاء ، عندما تَوَسَّلَ بعم النبي الأكرم ، ألم يسمي الله جلّ جلاله بغير إسمه الصحيح ؟ أفأنه قام بالإلحاد في اسم الله تعالى ؟

إن هذا الإستدلال يبين أن مواضيع المؤلف قد نفذت ، وكما يقال : فقد مسّت مطفحته (مرغاته) قاع القدر ، فهو على ذلك يتخبط في النفايات .

لا بأس أن نغير انتباهنا أيضاً للكلام الذي ينقله عن « محيي الدين ابن العربي » :

« لا يَتَوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ التَّوَسُّلَ إِنَّمَا هُوَ طَلَبُ الْقُرْبِ وَقَدْ أَخْبَرَنَا إِنَّهُ قَرِيبٌ وَخَبَرَهُ صِدْقٌ »^(١) .

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ١٨٠ .

إننا نعتقد أن السيد الرفاعي نفسه لا يطمئن لصحة قول ابن العربي ، بدليل أنهم أنفسهم يعتبرون الله تعالى قريباً ، ويتوسلون إلى دعاء النبي الأكرم (ص) في حالة الحياة ، وإلى دعاء الأخ المؤمن .

إنهم غافلون عن نقطة واحدة ، وهي أن التوسل نفسه كان من أسباب استجابة الدعاء ، ويكون باعثاً لإيجاد القرب ، كالأعمال الصالحة التي يقوم بها الإنسان . سيأتىكم تفصيل هذا القسم في المستقبل .

الدليل الخامس

ما العلاقة بين المسألة ومكانة الصالحين ؟

أن دليلهم العلمي (١) الأخير ، والذي أعطوه أيضاً مسحة فلسفية ، هو أن كان للصالحين مكانة وشأن عند الله سبحانه ، فهي بسبب الأعمال الصالحة التي قاموا بها . وفي هذه الحالة لا صلة بيننا ومكانة وشأن هؤلاء الذي هو نتاج سعيهم وجهدهم في سبيل الله تعالى ، فكيف يمكن لشخص أن يحاول التقرب عبر نتاج عمل شخص آخر ؟

ويكتب الرفاعي بهذا الصدد :

« فَمَا دُمْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْمَكَانَةِ وَالْحُرْمَةِ مَتَأْتِيَةٌ لَهُ مِنْ سَعْيِهِ وَمَتَاكَدُونَ أَنَّ سَعْيَهُ لَهُ وَلَيْسَ لَكُمْ فِيهِ مِنْ حَقٍّ ، فَكَيْفَ إِذَا مَتَوَسَّلُونَ إِلَى اللَّهِ بِجَاهٍ لَا تَمْلِكُونَهُ وَحُرْمَةٍ لَيْسَ لَكُمْ أَيَّْةُ عِلَاقَةٍ وَمَكَانَةٍ اخْتَصَّ اللَّهُ بِهَا وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْهَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ » (١) .

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ١٨١ .

ثم ينقل ولإثبات قوله ، عبارة عن شارح « عقائد الطحاوية »
[نسبة إلى أحمد بن محمد الأزدي - م .] ، حيث أن فحوى الإثنتين
واحد . وإليك عبارته :

« لا مُنَاسَبَةٌ بَيْنَ ذَلِكَ أَيْ صَلَاحُ الْمَتَوَسِّلِ بِهِ وَبَيْنَ اسْتِجَابَةِ
الدُّعَاءِ فَكَأَنَّ الْمَتَوَسِّلَ يَقُولُ : لِيَكُنْ فُلَانٌ مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ أَجِبْ
دُعَائِي » .

الإجابة :

وإننا إذا نعتذر عن كوننا نقلنا دليل هؤلاء بشكل مسهب ، نبادر
بالإجابة على ذلك . إن هذا الاستدلال يبين أنه لا معلومات كافية
لديهم حول ماهية عمل التوسل ، ولهذا فإنهم يردون أي نوع من الصلة
والعلاقة بين استجابة الدعاء ومكانة وشأن « المتوسل به » ، ويعتقدون
أن طلب الدعاء أو توسط مكانة وشأن النبي الأكرم (ص) ، هو كأن
يتناول أحدهم الكباب [اللحم المشوي] ، لكي يصبح آخر قوياً
ومقتدراً ، أو يمارس ذلك الرياضة ، لكي يصبح آخر سليماً . وفي
الختام فإنهم يعتقدون ، أن موضع التوسل هو كالمثل الفارسي الذي
يقول : أنا ذاك إن رستم كان بطلاً(*) ، أو كالمثل العلمي المعروف
الذي يقول : أنا ذاك ، إن العلامة كتب الفين .

ومن المؤسف حقاً أن ينتقد مؤلف عملاً ، لا معرفة له بكنهه :

(*) رستم : من أبطال الفرس . شخصية أسطورية . وقام بأعمال خارقة . تغنى
الفردوسي في الشاهنامة بمغامراته - م .

يصرح القرآن الكريم بصراحة متناهية :

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(١) .

ففي هذه الحالة ، كيف يمكن استثمار العمل الذي قام به الآخرون ؟ ولا يمكن أن يكون شأنه ومكانته مفيدان لي أبداً ، ما دام لم تتحقق رابطة بيني وعمله . ولنرى الآن ما العلاقة التي تربطنا بمكانته وشأنه ؟

ولا ريب في أن الفيض الإلهي والألطف الإلهية تمتعان الإنسان ، كل بمقدار استحقاقه ، وأن أي نوع من تغيير في روح ونفس الإنسان يؤدي إلى تغيير في نزول الفيض واللفظ الإلهيين ، وتشهد آيات القرآن البينات على ذلك :

﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاءُكُمْ﴾^(٢) .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٣) .

فعلى هذا ، يتحتم على المتوسل أن يبذل جهوده من أجل أن تهبط وتنزل الألطف الإلهية ، وأن يحدث في نفسه تبديلاً ، لكي يحدث تبديلاً أيضاً في البرنامج الإلهي .

انطلاقاً من هذا ، لنرى ما الذي يفعله المتوسل بالأنبياء والأولياء ، لأن يكون دعاءه مستجاباً ؟

(١) سورة النجم : الآية ٣٩ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٧٧ .

(٣) سورة الرعد : الآية ١١ .

أن توسله بأعزاء العتبة الإلهية هو من جملة أسباب نزول الرحمة ، وهبوط اللطف الإلهي ، ولو لم يكن هذا التوسل ، فإن العلة الناقصة (كإيمان الشخص ، وعمله) لم تكن كافية في نزول اللطف الإلهي . إن خلل هؤلاء إزاء موضوع التوسل ، هو كإستشكال الماديين إزاء صلاة المطر ، ومسألة المطر من الله سبحانه وتعالى . إنهم يقولون : إذا كانت الظروف الجوية ملائمة لهطول المطر ، وقد تبخرت مياه البحر بالحد الكافي ، ووصل البخار في الهواء حدَّ الإشباع ، فبالضرورة سيهطل المطر ، وبعبكس هذه الحالة ، فلن يتساقط المطر ، سواء قمتم بالدعاء أو لم تقوموا به .

لقد أجبنا على هذا الخلل وبإسهاب في كتاب « القضاء والقدر في العلم والفلسفة الإسلامية » وبرهنا أن الدعاء المؤثر ، من وجهة نظر الإلهيين هو ضمن أسباب هطول المطر ، وهناك ظواهر أخرى . ولو لم يكن هذا الدعاء ، فإن الأحوال الجوية لم تكن كافية في نزول الرحمة ، ولأننا لا نملك معرفة كاملة بصدد أسباب الظواهر ، ولأنه تهما فقط العلل المادية من بين العلل جميعها ، فلذا نتصور أن « الدعاء المؤثر » هو خارج « إطار » أسباب الظواهر .

وإننا نجيب بنفس الشيء على السادة الوهابيين . فهم يعتبرون التوسل بمكانة الأولياء أمر غير مُجدٍ ولا مؤثر ، ويتصورون أن المؤثر الوحيد من حيث أهل التوسل ، هو شأن الصالحين ومكانتهم ، فهم يقولون انطلاقاً من هذا : ما العلاقة بين التوسل بالأنفس المحترمة أو بالمكانة والشأن بموضوع استجابة الدعاء ؟!

بل أن التوسل بالصالحين ، خاصة الأنبياء والأولياء ، هو تبيان

المودة لأعزاء الله تعالى والأنفس الفاضلة . حيث أن الله سبحانه
أوجب علينا مودتهم ، وهنا حيث يقول :

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا المودةَ في القُرْبى ﴾ (١) .

إنَّ التوسل بأشخاص كهؤلاء يوجد تغيراً في روحنا ونفسنا ،
ويؤدي إلى أن يحترم الإنسان كل ما يحترمه هؤلاء ، أن يعتبر حلال
هؤلاء وحرامهم حلالاً وحراماً ، وأن يقوم في النهاية بعملٍ ليصبح
شبيهاً لهم من جهة واحدة أو من جهات عدة .

ففي هذه الحالة حيث يكون التوسل نفسه صانعاً للتكامل
والتغيير ، أبقى لنا الحق ثانية لنقول ، أن لا صلة بيننا ومكانة
هؤلاء !؟

وأن نقول بشكل أكثر صراحة : يعتقد الرفاعي وزملائه في
الفكر ، أن المتوسل يسأل الله سبحانه أن يعطي من مكانة هؤلاء
وشأنهم ، حصّة له ، فإنهم يقولون على الفور : أن مكانة هؤلاء
وشأنهم كانت ثمرة جهودهم ، ولا تكون نصيباً لغيرهم . في حين لا
يسمح أي متوسل أن تتسرب إلى فكره ، فكرة باطلة كهذه . وإن دوي
كلام أمير المؤمنين (ع) دائماً في مسامعه . وهنا حيث يقول :

« وإلا فجنّة أيديهم لا تَكُنْ لغيرِ أفواههم » (٢) .

ومن وجهة النظر الحقوقية ، فإن العمل والجهد يكونان بداية

(١) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

(٢) « نهج البلاغة » ، الخطبة ٢٣٠ - (نهج البلاغة ، فيض الإسلام ، الخطبة ٢٢٣) .

لسلسلة من الملكيات أو الحقوق والإختصاصات ، وبشكل لا جدال فيه ، فإن ملك أي شخص وحق أي فردهما ثمرة الشخص نفسه .

بيد أنه ، آخذين بنظر الإعتبار أن إبداء الرغبة بعزیز الله تعالى ، يكون بحد ذاته أساساً للإقتراب من التكامل النفسي واللباقة الروحية . وفي نفس الوقت ، فإن التوسل به يؤدي إلى التجانس الأخلاقي وعمل الأفراد فلهذا يكون دعاء مستجاباً .

لقد أغضنا النظر نحن عن هذه الإجابة ، ففي النهاية كيف يجري التحكيم بصدد الشفاعات ووساطات عالم المادة الموجودة في أوساط عقلاء وفاهمي العالم ؟ وكيف أنه بتوسيط عزيز لدى الشخص المقتدر ، يفض النظر عن تقصير المذنب ؟ فكيف أن هؤلاء العقلاء في العالم جميعهم يتقبلون عملاً غير صحيحاً كهذا ، ويقبلونه عبر وساطة الأشخاص ؟

أن لا يجري التصور طبعاً ، إننا نعتبر مكانة التوسل بأعزاء العتبة الإلهية بمثابة توسيط عزيز أحد الزعماء ، بل الهدف هو أن عملاً كهذا هو عمل بعيد عن أن يقبله العقل ، ولن يقول أي إنسان ذو شأن أكبر : هو عزيز ، فما دخلك في الموضوع ؟ بل يعتبر التقرب منه تقرباً من نفسه ، وإن إبداء الرغبة حيال المحبوب ، يفهم منه أساساً لتغير المتوسل الروحي .

إلى هنا تمت دراسة أدلة مخالفي التوسل ، وانتزع سلاحهم تماماً . وقد حان الوقت الآن لأن نبحث أدلة التوسل بالأنبياء والأولياء حسب منظور الكتاب والسنة .

الأدلة على جواز التوسل

لقد أثبت البحث السابق أن التوسل بالأنبياء والأولياء ليس ممنوعاً أو غير مشروعاً من وجهة نظر القرآن ، بيد أن ما هو واضح تماماً ولا يحتاج إلى توضيح ، هو أن عدم ممنوعية عمل ما ليس كافياً لأن يكون مفيداً ونافعاً . والآن سندرس موضوع التوسل كونه مفيداً ونافعاً ، وذلك من خلال دراسة آيات القرآن والأحاديث الإسلامية ، وسنوضح إنشاء الله تعالى أن شريعة الإسلام المقدسة دعت أنصارها إلى عمل كهذا ، وهو لدى المسلمين أمر مفيد ونافع .

الاستدلال بآيات القرآن الكريم

أن الآية الشريفة التالية تدعونا من بين آيات القرآن ، وبوضوح إلى ابتغاء « الوسيلة » لعبادة الله المقدسة . حيث تقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

إن معرفة فحوى الآية الشريفة ، مرهونة بدراسة موضوعين اثنين :

- ١ - ما هو مفهوم « الوسيلة » في اللغة العربية ؟
 - ٢ - هل أن التوسل بالأنبياء والأولياء الإلهيين هو مصداقية التمسك بـ « الوسيلة » أم لا ؟
- لقد جاءت « الوسيلة » في اللغة العربية بمعنى « ما يتوسَّل

(١) سورة المائدة : الآية ٣٥ .

به . « . وعبر اللغويون العرب عن هذه الحقيقة .

يقول الراغب الأصفهاني في كتاب « مفردات ألفاظ القرآن » ما

يلي .

الوسيلة : « التوصل إلى الشيء برغبة . . . وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مُراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة وهي كالقربة » .

ويكتب « ابن منظور » [محمد بن مكرم] في « لسان

العرب » :

« تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِوَسِيلَةٍ إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِكَذَا : تَقَرَّبَ إِلَيْهِ وهي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء وتقرّب به ويطلق على كُلِّ عَمَلٍ خَالِصٍ سُبُلِكَ بِهِ طَرِيقُ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ وَأَنْوَاعِ التَّطَوُّعَاتِ » .

ويقول « مرتضى الزبيدي » في « تاج العروس » ما يلي :

« الوسيلة . . . والجمع الوسائلُ وقال الجوهري الوسيلة ما يتقرّب به إلى الغير » .

لقد وردت في المعاجم اللغوية عبارات كالتى نقلناها أو مشابهة لها تماماً ، كـ « نهاية » ، و « ابن الأثير » وغيرهم ، ونتجنب بدورنا تبianaها .

أن هذا الحشر من نصوص اللغويين أثبت أن المفهوم الحقيقي للوسيلة ، هو نفس البحث عن وسيلة الشيء ، إذا استعملت تارة

بمعنى « القرب » (وليس وسيلة القرب) ، فهو من باب الصدفة أو الإقتضاء ، حيث توجد في الغالب استعمالات مجازية ، ويحتمل أن يكون اقتضاء وسيلة التقرب سبباً للقرب والتقارب ، ويطلقون في اللغة العربية سبباً ، ومسبباً في أحيان أخرى . وقد أشير إلى هذا الموضوع في فن البلاغة .

وتَمَّ إلى هنا تذليل العقبة الأولى ، ولكن إلى أن لم يتحقق الموضوع الثاني ، لن يكون القسم الأول وافياً ، لأن هذه الآية تدعونا إلى البحث عن الوسيلة ، ولا ريب في أن أداء الفرائض والمستحبات وتجنب المحرمات والمكروهات ، هي أعظم وسيلة للتقرب إلى مقام الربوبية .

يقول « أمير المؤمنين » - عليه السلام - في إحدى خطبه حول الوسيلة التي يتوجب على المؤمن التمسك بها ، ما يلي :

« إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوْسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ (سبحانه) الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الْإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةُ الْإِحْلَاصِ . فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جَنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ وَحُجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ فَإِنَّهَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيُدْحِضَانِ الذَّنْبَ وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ وَمَنَاءٌ فِي الْأَجْلِ وَصَدَقَةُ السَّرِّ فَإِنَّهَا تَكْفُرُ الْخَطِيئَةَ وَصَدَقَةُ الْعِلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ »^(١) .

يزيح الإمام في خطبته هذه ، السُّتر عن حقيقة التوسل ، وهو أن

(١) « نهج البلاغة » ، محمد عبده ، الخطبة ١٠٦ .

التوسل هو البحث عن وسيلة ، وأن حقيقة التوسل هو عملٌ يشكل أساساً لقرب كمال الإنسان الروحي والمعنوي ، وتطهير الإنسان من سلسلة من الآثام وعوامل البؤس والشقاء .

ولهذا يتوجب علينا في هذا الحقل من الكلام إثبات أن التوسل بأعزاء العتبة الإلهية المقدسة ، هو واحد من السنن الإسلامية الذي يستطيع أن يكون كالفرائض والمستحبات ، سبباً للقرب المعنوي ونيل رضى الحق ، وأن يكون في النهاية باعثاً للسعادة والسؤدد . وإلى أن لم يثبت هذا الموضوع من ناحية القرآن الكريم والأحاديث الإسلامية الشريفة ، فلن تكون الكبرى الكلية التي تستخلص من الآية موضع البحث ، مفيدة .

يتألف الاستدلال دوماً من شيئين :

١ - الصغرى .

٢ - الكبرى .

في هذه الدراسة ، تضع الآية موضع البحث ، الكبرى الكلية في متناولنا وهو أنه يتوجب على المؤمنين تحصيل الوسيلة ، بيد أنه لن تكون الكبرى الكلية مفيدة إلى أن تثبت الصغرى وتتوضح في أن التوسل بأعزاء عتبة الله سبحانه وسيلة وأساس القرب . والآن نشرع في تبين هذا القسم :

يمكن إثبات هذا الموضوع من خلال (القرآن الكريم ، وسيرة المسلمين ، والأحاديث) :

١ - الإستدلال بالقرآن الكريم

لا ريب^(١) في أن أداء الفرائض هو من أحد الطرق والوسائل النافذة ، التي تمنح التقرب للإنسان ، وتقربّه إلى الله تعالى ، وقد صرح بهذه الحقيقة « أمير المؤمنين » - عليه السلام - في خطبته ، و« ابن منظور » في معجمه لسان العرب ، وغيرهم .

إن إحدى الفرائض الإلهية وفق نص القرآن الكريم ، هي « المودة في القربى » ، و« مولاة وحب أهل بيت الرسالة » ، والذي أعطى بشكل ظاهري (طبعاً بشكل ظاهري) أجر الرسالة . وهنا حيث يقول :

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾^(٢) .

تصرح الأحاديث المتواترة وإجماع أغلب المفسرون الإسلاميون ، أن المقصود من « المودة في القربى » هو حب أهل بيت الرسالة ، المودة التي هي جسراً للسعادة وأساساً للتكامل ووسيلة للتجانس والتشابه بين الإنسان وأهل بيت الرسول . ولقد تحدثنا بإسهاب في كتاب « الطريق الثالث »^(٣) : الدرس الرابع والخامس والسادس ، حول هذه الآية الشريفة وكيفية كون « المودة في القربى » أجراً ، وتأثير ذلك في تحقيق أهداف الرسالة ، وتكامل الأجيال ،

(١) إن ملخص هذا الطريق هو أن التوسل بالنبي الأكرم (ص) وابنائهِ الصالحين ، هو العمل وفق الآية ودعوة ذي القربى ، وأن الدعوة نفسها وإبداء الرغبة ، هي نوع من الوسيلة .

(٢) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

(٣) صدر هذا الكتاب حديثاً تحت عنوان : « بحوث حول الولاية »

واجبنا على جميع جزئيات الأعذار التي طرحت من قبل الشخص غير
العليم بالأمر القرآنية .

فعلى هذا فإن « المودة في القربى » هي من إحدى الفرائض
الإلهية التي أمر بها الله عز وجل في القرآن الكريم . ولقد صاغ هذه
الحقيقة « محمد بن إدريس الشافعي » (١٥٠ - ٢٠٤ هـ /
٧٦٧ - ٨٢٠ م) في إطار قصيدة ، يقول فيها :

« يَا أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ حُبُّكُمْ ،
فَرَضَ مِنَ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ أَنْزَلَهُ ،
كَفَاكُمْ مِنْ عَظِيمِ الْقَدْرِ إِنَّكُمْ ،
مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْكُمْ لَا صَلَاةَ لَهُ » (١) .

لقد اعتبر القرآن الكريم في إحدى الآيات ، مودة أهل الرسالة
إحدى الطرق التي تقود الإنسان إلى رضى الله تعالى . وهنا حيث
تقول :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ
سَبِيلًا ﴾ (٢) .

فكلما وضعنا هاتين الآيتين جنب بعض ، فإننا نتوصل إلى نتيجة
مفادها . أن « المودة في القربى » بالشكل الذي أشرنا إليه في
السابق ، هي نفس « السبيل » الذي ورد في هذه الآية ، لأنه سبق وأن
نوهنا كون ليس المقصود المودة الجافة والجوفاء ، بل الحب الحميم

(١) « الصواعق المحرقة » . طبعة القاهرة ، الصفحة ١٤٦ ، دار الطباعة المحمدية .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٥٧ .

والبناء، الذي يكون أساس تجانس الطرفين ، ونفوذ المحبوب في قلب الصديق ، ونتيجة ذلك هو التشابه الخلقي بهؤلاء والتكامل الروحي في ضوء العمل وفق الفرائض وبعيداً عن المحرمات ، وأن مودة كهذه ، هي طريق السعادة الواسع ، وإن الهدف من الرسالة هو قيادة الناس إلى هذه السبل والطريق .

وعلى هذا ، فقد ذكر ذلك في الآية الثالثة ، حيث تقول :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾^(١) .

واضح جداً ، أن فائدة مودة كهذه ، والتي هي بناءة ولها نتائج وضاء كهذه ، تعود إلينا مائة في المائة ، وليس لصاحب الرسالة .

وعلى هذا الأساس يمكن للمودة في القربى أن تكون إحدى الوسائل التي دعانا إليها الله سبحانه وتعالى في الآية موضع البحث ، ولو توسلنا إليه أو إلى أنبيائه الصالحين ، فإننا في الواقع نتمسك بوسيلة كهذه ، ونقول :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ (ص) وَآلِهِ » .

وعلى أية حال ، فإننا نقوم بعملٍ منطبق على موازين القرآن الكريم^(٢) .

إن أوضح دليل على أن النبي الأكرم وأصحابه ، هم من مصاديق

(١) سورة سبأ : الآية ٤٧ .

(٢) وباختصار يقولون ، يتوسل هذا الكلام بدعوتك وعلاقتك ، وأن إبداء رغبة كهذه ، هي وسيلة بحد ذاتها والتي أمرنا بها .

« الوسيلة » ، هما قصيدتان معروفتان نقلهما ابن حجر الهيتمي عن الإمام الشافعي في كتاب « الصواعق المحرقة » ، حيث تقول :

آل النبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمين صحيفتي^(١)

عندما سأل المنصور ، الإمام المالك عن كيفية زيارة الرسول الأكرم (ص) ، قائلاً :

يا أبا عبد الله أَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَأَدْعُوا أَمْ أَسْتَقْبِلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؟

فأجاب المالك قائلاً :

« لِمَ تَصْرِفُ وَجْهَكَ عَنْهُ وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ (عليه السلام) إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَلْ إِسْتَقْبِلْهُ وَاسْتَشْفَعْ بِهِ فَيَشْفَعَكَ اللَّهُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ »^(٢) .

يقول السمهودي :

« فانظر إلى هذا الكلام مِنْ مَالِكٍ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الزِّيَارَةِ وَالتَّوَسُّلِ بِالنَّبِيِّ وَاسْتِقْبَالِهِ عِنْدَ الدُّعَاءِ وَحَسَنِ الْأَدَبِ التَّامِّ مَعَهُ » .

ويمكن أن نقول آخذين هذه الشواهد والكلمات بنظر الاعتبار ،

(١) « الصواعق المحرقة » ، الصفحة ١٧٨ ، طبعة مصر ، دار الطباعة المحمدية .

(٢) « وفاء الوفا » المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٧٦ .

أن الأنبياء ورجال التقوى هم إحدى الوسائل التي أمرنا القرآن الكريم ، التوسل بها .

خاصة إذا وصلتنا روايات عبر أهل البيت في تفسير الوسيلة ، أن تلحق بالذي نقلناه ، والرجوع في هذا المجال إلى « تفسير البرهان »^(١) .

٢ - الإستدلال بسيرة المسلمين

يتضح من خلال الرجوع إلى سيرة مسلمي صدر الإسلام ، أن التوسل بالصالحين والطاهرين كان برأيهم إحدى مصاديق أفراد « الوسيلة » ، حيث أمر الله تعالى به ، ويمكن أن يكون هذا الموضوع مع الأحاديث التي وصلت عن أهل الرسالة ، إعلاناً عن رأي المسلمين في العالم (فيما عدا الوهابيون) ، ولن يكون لمخالفة هذه الفئة التي خالفت موضوع التوسل منذ القرن الثامن الهجري ، ضرراً .
والآن سوف نتناول سيرة المسلمين والأحاديث الواردة في هذا المجال . سنبدأ أولاً بسيرة المسلمين ، ثم نشرع في بيان الأحاديث .

أ : التوسل بالعباس عم الرسول الأكرم (ص) في مضامير مختلفة

١ - يكتب « ابن الأثير عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري » ، (المتوفي في سنة ٦٣٠ هـ) ، في كتاب « أسد الغابة في معرفة الصحابة » :

(١) « تفسير البرهان » ج ١ ، الصفحة ٤٦٩ .

وَاسْتَسْقَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالْعَبَّاسِ عَامَ الرَّمَادَةِ لَمَّا اشْتَدَّ
الْقَحْطُ فَسَقَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَاخْصَبَّتِ الْأَرْضُ فَقَالَ عُمَرُ هَذَا : وَاللَّهِ
الْوَسِيلَةُ إِلَى اللَّهِ وَالْمَكَانُ مِنْهُ وَقَالَ حَسَّانُ :

سَالَ الْإِمَامُ وَقَدْ تَتَابَعَ جَدُّنَا
فَسَقَى الْغَمَامُ بِغُرَّةِ الْعَبَّاسِ
عَمَّ النَّبِيِّ وَصُنُو وَإِلَيْهِ الَّذِي
وَرِثَ النَّبِيُّ بِذَلِكَ دُونَ النَّاسِ
أَحْيَا إِلَهُ بِهِ الْبِلَادَ فَأَصْبَحَتْ
مُحْضَرَّةَ الْأَجْنَابِ بَعْدَ الْيَأْسِ

وَلَمَّا سُقِيَ النَّاسُ طَفِقُوا يَتَمَسَّحُونَ بِالْعَبَّاسِ وَيَقُولُونَ هُنِيئاً لَكَ
سَاقِي الْحَرَمِينَ» (١) .

إن ملاحظة هذه القطعة التاريخية ، والتي ورد قسم منها في
« صحيح البخاري » أيضاً تدلنا على تفسير الآية ، وهو أن إحدى
مصاديق « الوسيلة » هي توسل بالذوات المحترمة وأصحاب الشأن ،
والتي تكون باعثاً للقرب وسبب الوقارة في الداعي والمتوسل ، فما
أوضح من هذا التعبير ، حيث قال :

« هذا والله الْوَسِيلَةُ إِلَى اللَّهِ وَالْمَكَانُ مِنْهُ » .

٢ - يكتب « القسطلاني » (٢) أحمد بن محمد بن أبي بكر ،

(١) « أسد الغابة » ، المجلد ٣ ، الصفحة ١١١ ، طبعة مصر .

(٢) يقال القسطلاني أحياناً لـ أحمد بن علي بن حجر « (٧٣ - ٨٥٣ هـ) » ، بيد أن =

معاصر « جلال الدين السيوطي » المتوفي في سنة ٩٢٣ في كتاب
« المواهب اللدنية بالمنح المحمدية في السيرة النبوية » المطبوع في
مصر :

« أَنْ عُمَرَ لَمَّا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ
رَسُولَ اللَّهِ (ص) كَانَ يَرَى لِلْعَبَّاسِ مَا يَرَى الْوَلَدُ لِلْوَالِدِ فَاقْتَدُوا بِهِ فِي
عَمِّهِ وَاتَّخِذُوهُ وَسِيلَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَفِيهِ التَّصْرِيحُ بِالتَّوَسُّلِ وَبِهَذَا يَبْطُلُ
قَوْلُ مَنْ مَنَعَ التَّوَسُّلَ مُطْلَقاً بِالْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ وَقَوْلُ مَنْ مَنَعَ ذَلِكَ بِغَيْرِ
النَّبِيِّ » (١) .

٣ - فليس « القسطلاني » إن جاء بها لوحده في « المواهب » ،
وإنما ذكر أيضاً « شارح المواهب » ، « محمد بن عبد الباقي مالكي
الزرقاني » (١٠٥٥ - ١١٢٢) ، نفس هذه العبارات في مجال آخر .

فهو يكتب :

« كَانَ يَرَى لِلْعَبَّاسِ . . . يُعَظَّمُهُ وَيَفْخُمُهُ وَيَبَرِّ قَسَمَهُ فَاقْتَدُوا -
برسولِ الله في عَمِّهِ الْعَبَّاسِ وَاتَّخِذُوهُ وَسِيلَةً إِلَى اللَّهِ فِيمَا نَزَلَ بِكُمْ » .

= الصحيح هو العسقلاني ، وليس القسطلاني . ورغم أن أستاذنا الفاضل المرحوم
السيد حسن المدرس في المجلد الرابع الصفحة ٤٥٨ من كتابه النفيس « ريحانة
الأدب » ، خلط هذين الإسمين معاً ، بيد أنه ذكر ذلك بشكل صحيح في المجلد
الثامن ، الصفحة ٤٧٠ . وقد سجل ذلك « ابن الهيثمي » « الهيثمي » أيضاً في
المجلد الثامن ، الصفحة ٤٧١ ، و « الهيثم » منطقة في مصر . وقد ولد ابن حجر
الهيثمي في سنة ٩٠٩ هـ ، وتوفي في سنة ٩٧٣ .

(١) العودة إلى « شرح المواهب » المجلد ٣ ، الصفحة ٣٨٠ ، طبعة مصر .

٤ - لقد جاء « ابن حجر العسقلاني » قبل القسطلاني ، نفس هذه العبارات في شرح البخاري بإسم « فتح الباري في شرح البخاري » . حيث يكتب :

« وَخَطَبَ النَّاسَ عُمَرُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَرَى لِلْعَبَّاسِ وَ... وَاتَّخَذُوهُ وَسِيلَةً فَمَا بَرَّحُوا حَتَّى سَقَاهُمُ اللَّهُ » .

ثم يقول : « يُسْتَفَادُ مِنْ قِصَّةِ الْعَبَّاسِ اسْتِحْبَابُ الْإِسْتِشْفَاعِ بِأَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ وَأَهْلِ بَيْتِ النَّبُوَّةِ وَفِيهِ فَضْلُ عَبَّاسٍ »^(١) .

٥ - ينقل البخاري في صحيحه :

« إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ إِذَا قَحِطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَالَ اللَّهُمَّ كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بَنَبِيِّنَا فَتَسْقِنَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا قَالَ فَيَسْقُونَ »^(٢) .

لا ريب في صحة وإجماع هذا الكلام ، ولم يشك الرفاعي أو يتردد في صحة هذا الكلام ، رغم أنه ينفي وبأشكال مختلفة أحاديث التوسل المتواترة ، ويقول :

« إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ^(٣) صَحِيحٌ ... »

(١) « فتح الباري في شرح البخاري » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٤١٣ ، طبعة لبنان ، مكتبة دار المعرفة .

(٢) « صحيح البخاري » ، باب صلاة الإستسقاء ، طبعة محمد علي صبيح ، المجلد ٢ ، الصفحة ٣٢ .

(٣) كان من الأجوز أن يقول : « إِنَّ هَذَا التَّارِيخُ صَحِيحٌ » ، لأن يكون في اصطلاح الحديث حاكياً عن كلام الرسول الأكرم - صلى الله عليه وآله - وأن بحثنا هو أيضاً حول الأحداث التاريخية ، وسوف نأتي بأحاديث التوسل لاحقاً .

فإن صحَّ هذا الجَوَازُ شَرَعاً فَنَحْنُ مِنْ أَصْبَحِ النَّاسِ إِلَى الْأَخْذِ بِهِ
وَالْعَمَلِ بِمَقْتَضَاهُ » .

أَمَّا مِنَ الْمُؤَسَفِ ، أَنَّهُ يَرِيدُ مِنْ خِلَالِ عِرَاقِيلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ
يَشُوِّهَ دَلَالََةَ الْحَدِيثِ ، وَأَنْ يَعْتَبِرَهُ بِمِثَابَةِ التَّوَسُّلِ بِدَعَاءِ الْأَخِ الْمُؤْمِنِ ،
وَلَيْسَ التَّوَسُّلُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ أَنْفُسَهُمْ .

وَلِنَتَأَمَّلَ الْآنَ بِدَقَّةٍ مَضْمُونُ الْحَدِيثِ ، لِيَتَضَحَّ أَنَّ الْحَدِيثَ مُتَعَلِّقٌ
بِأَيِّ مِنَ التَّوَسُّلِينَ :

١ - تَحْكِي لَفْظَةَ الْبَخَارِيِّ عَنْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَتَوَسَّلُونَ بِشَأْنِ
« الْإِسْتِسْقَاءِ » بِشَخْصٍ « الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ » - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -
وَبِمَكَانَتِهِ وَمَنْزِلَتِهِ ، لَيْسَ فَقَطْ بِدَعَاءِ الرَّسُولِ ، كَمَا كَانَ الْخَلِيفَةُ يَتَوَسَّلُ
بِمَكَانَةٍ وَمَنْزَلَةِ الْعَبَّاسِ وَصَلَةِ الْقَرْبَى الَّتِي كَانَتْ تَرْبِطُهُ بِالنَّبِيِّ ، فَإِنَّهُمْ
كَانُوا يَتَخَذُونَ مِنْهَا وَسِيلَةً لِاسْتِجَابَةِ دَعَائِهِمْ . إِنْ تَبَرَّرَ الْحَدِيثُ عَبْرَ
هَذَا الطَّرِيقِ الَّذِي كَانَ فِيهِ يَتَوَسَّلُ الْمُسْلِمُونَ وَالْخَلِيفَةُ كَذَلِكَ بِدَعَاءِ
النَّبِيِّ وَدَعَاءِ الْعَبَّاسِ ، هُوَ تَزْوِيرُ الْحَدِيثِ تَمَاماً وَقَلْبَ فَقَادِهِ الظَّاهِرِي ،
وَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَرْفَعَ أَيْدِينَا عَنْ ظَاهِرِهِ مَا دَامَ الدَّلِيلُ الْقَطْعِيُّ لَيْسَ عَلَى
خِلَافِ ظَاهِرِ الْكَلَامِ ، وَإِلَّا سَيَكُونُ أَسَاسُ الشَّرِيعَةِ (هُنِيئاً) عَرْضَةً
لِلتَّأْوِيلِ .

٢ - لَوْ أَخَذْنَا الْعِبَارَاتِ الَّتِي نَقَلْتُ عَنْ الْخَلِيفَةِ فِي مَوْضُوعِ
التَّوَسُّلِ بِالْعَبَّاسِ وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ يَقْسِمُ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَيَقُولُ :

« هَذَا وَاللَّهِ الْوَسِيلَةُ إِلَى اللَّهِ وَالْمَكَانُ مِنْهُ » (١)

(١) أَسَدُ الْغَابَةِ ، الْمَجْلَدُ الثَّالِثُ ، الصَّفْحَةُ ١١١ .

يتضح أن واقع التوسل بهذا الصدد ، هو التوسل بمقام « العباس » عند الله سبحانه .

٣ - لقد نقل « شمس الدين أبو عبد الله محمد بن النعمان المالكي ، المتوفي في سنة ٦٨٣ ، في كتابه « مصباح الظلم في المستغيثين بخير الأنام » عن ابن العباس ، نقل طريقة توسل عمر :

« اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَقِيكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ (ص) وَنَسْتَغِيغُ إِلَيْكَ بِشَيْبَتِهِ فَسُقُوا وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَبَّاسُ بْنُ عَتَبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ :

بِعَمِّي سَقَى اللَّهُ الْحِجَارَ وَأَهْلَهُ غَشِيَةً يَسْقَى بِشَيْبَةِ عُمَرَ^(١)

٤ - لقد أُنشد « حسان بن ثابت » شعراً في هذا المجال ، وقال :

« فَسَقَى الْغَمَامَ بَغْرَةَ الْعَبَّاسِ » .

وبملاحظة هذه الطائفة وطائفة أخرى من الأشعار ، لا يبقى مكاناً للشك في أن هدف التوسل كان بمقام ومكانة العباس .

٥ - يقول ابن حجر العسقلاني في كتاب « فتح الباري في شرح حديث البخاري » : قال العباس في دعائه :

« وَقَدْ تَوَجَّهَ الْقَوْمُ بِي إِلَيْكَ لِمَكَانِي مِنْ نَبِيِّكَ »^(٢) .

فأية جملة أبلغ وأفصح من أن هؤلاء اهتموا بمنزلة ومكانة

(١) « وفاء الوفا » ، المجلد الثالث ، الصفحة ٣٧٥ ، نقلاً عن « مصباح الظلام » .

(٢) « فتح الباري » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٤١٣ ، طبعة دار المعرفة - لبنان .

العباس ، واتخذوها وسيلة لأنفسهم ؟

٦ - قالوا منذ القدم :

« تعليق الحكم بالوصف مُشعرٌ بالعلية » .

وإذ يقول القرآن الكريم :

﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ ﴾ (١) .

فإنه بسبب تبيان علة الحكم ، ولأن النساء أنجبين للرجال أطفالاً ، فلا مناص عليهم جبراً تهيئة نفقات معيشة هؤلاء .

وإذا قلنا : إحترم العالم ، فهو بسبب علمه .

وإذا يقول عمر : « إِنَّا تَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ » . فهو يريد أن يوصل علة التوسل إلى العباس ، أنه لماذا توسلنا إليه من بين الأشخاص الآخرين ، كما قال العباس نفسه : « لِمَ كَانِي مِنْ نَبِيِّكَ » .

يمكننا لو أخذنا كل هذه الأمور بنظر الاعتبار ، أن نقول بشكل قاطع ويقين ، أن مسلمي صدر الإسلام كانوا يتوسلون بالأشخاص الطاهرين والصالحين .

الإجابة على مجموعة من التساؤلات

لقد حان الوقت الآن لنجيب على البعض من التساؤلات التي تطرح في جوانب الحديث ، وجاء بهذه الأسئلة العالم المكي

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣٣ .

« أحمد بن زيني دحلان » في كتاب « خلاصة الكلام » وأجاب بدوره عليها : بيد أنه من المؤسف أن مؤلف « التوصل » طرحها ثانية دون أن يأخذ ما سبق طرحه بنظر الإعتبار ، وجسّم صورة من عراقيل بني إسرائيل . وإليكم الأسئلة :

السؤال الأول :

١ - « لو كان قصدُ الخليفةِ ذاتِ العباسِ لكانَ ذاتُ النبيِّ أَفْضَلَ وأعْظَمَ وأقْرَبَ إلى الله من ذاتِ العباسِ بلا شك ولا ريب مثبت أن القصدَ كان الدعاء وأنَّ عمليّةَ الاستسقاء مؤلّفةٌ عُنصرين ، طَلَبُ الدعاءِ ، والدعاء فلَمَّا توفّي ، فَقَدْ عُنْصِرُ الدعاء الذي بدُونِهِ لا تَتِمُّ عمليّةُ الاستسقاء » .

إننا نعيد عليهم نفس هذه الإِسْئَلَة ، ونقول إذا كان المقصود هو التوسل بدعاء العباس ، فقد كان لهم بين الصحابة أشخاص أسمى وأفضل ، أكثر نقاءً وزهداً منه ، فلماذا اللجوء إلى شخص في حالة وجود أفضل منه . وإذا كان اختيار العباس بسبب قرابته للنبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فقد كان لعلي بن أبي طالب (ع) أرفع صلة القرابة مع النبي : كان ابن عمه ، وصهره ، وأما من حيث الصلاح والعفاف ، والتقوى والزهد وغيرها من الخصال الإنسانية البارزة ، فقد كان لا مثيل له ، فلماذا ترك الخليفة علياً الذي كان من جميع الأوجه أكثر شمولية وكمالاً ، والتجأ إلى غيره الذي لم يكن يبلغ مستواه أبداً ؟

إن الفارق الوحيد الذي كان يتحلّى به علي (ع) دون العباس ، هو أن العباس كان عمّ النبي (ص) ، وكان علي ابن عمّه ، وعلى هذا

فقد كان علي (ع) صهره ونسيبه ، وكان حسب نص القرآن الكريم ، يشكّل نفس النبي الأكرم (ص) وروحه^(١) ، وإن نواحي أمير المؤمنين الإيجابية كانت تفوق العباس بدرجات .

وباختصار ، فليس هذا بسؤال يكون موجهاً إلى التوسل بالأشخاص ، بل هذا السؤال نفسه في التوسل بالدعاء مطروح أيضاً ، وأن جواب كلا السؤالين واحد ، وهو أنه لا يتوجب دوماً أن ينساق الإنسان في جميع الأمور نحو الأفضل ، بل ورغم الأسباب والأوجه ، فهو ينساق وراء الجدير مع وجود الأجدر ، ويمكن أن يكون كبر سن العباس وحادثة الإمام نسبة إليه قد أدى إلى أن يمد الخليفة يده إلى العباس مع وجود الإمام .

ناهيك عن هذا ، فلو جرى التمهص في نص خطاب عمر والعبارة المنقولة عن العباس ، يتجلى أن روح الموضوع كان التوسل إلى النبي (ع) . وأن التوسل إلى العباس هو خلاف التوسل إلى النبي الأكرم (ص) ، وقد بحث في الحقيقة من خلال هذا الطريق التوسل إلى النبي .

لقد قال الخليفة ما يلي : « إِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ » . وقال العباس أيضاً في الدعاء الذي نقل عنه : « وَقَدْ تَوَجَّهَ الْقَوْمُ بِي إِلَيْكَ لِمَكَانِي مِنْ نَبِيِّكَ » .

(١) لقد اعتبر الإمام علي - عليه السلام - في الآية القرآنية (المباهلة) ، « نفس وروح الرسول الأكرم (ص) » . الرجوع إلى « سورة آل عمران » ، الآية ٦١ . لا يوجد بهذا الصدد اختلاف بين المفسرين .

أن التمحّص في هذه الكلمات يرّسم لنا حقيقة التوسّل إلى العباس ، حيث كان للتوسّل إليه باطن وظاهر ، وكان ظاهره هو العباس ، أما باطنه وداخله فكانت شخصية النبي الأكرم (ص) الرفيعة المكانة .

فعلى هذا ، إنّ العدول عن النبي إلى العباس ليس دليلاً على أن التوسّل بالشخص اللاحق في الحقيقة غير ممكن أبداً ، سواء كان التوسّل إلى شخصه أو إلى دعائه ، وليس دليلاً على أن التوسّل إلى العباس كان توسلاً إلى دعائه ، وليس إلى ذاته .

السؤال الثاني :

تصرّح عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وأنس بن مالك أن أسلوب توسّل المسلمين إلى النبي الأكرم (ص) في موضوع الإستسقاء كان أنهم يتذمرون من عدم هطول الأمطار ، وكان النبي أحياناً يدعو لوحده ويهطل المطر ، كما جاء في رواية أنس بن مالك ، وكان يصاحب الدعاء أحياناً بالصلاة .

فعلى هذا ، يجب أن يكون توسّل عمر بالعباس هكذا .

الإجابة :

لندّعي عائشة ولا أنس أن استسقاء المسلمين كان بهذه الصورة في جميع الحالات والسنوات ، ولم يكن من أسلوب آخر ، بل أن كليهما ينقلان أحداثاً شخصية ، وأن استنباط الأحكام الكلية من هذين الحديثين ليس بالأمر اليسير . وإليكم عبارة كلا الحديثين :

تقول عائشة :

« شَكَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ قَحَوطَ الْمَطَرِ فَأَمَرَ بِمَنْبِرٍ فَوُضِعَ لَهُ
بِالْمُصَلَّى » .

« إِنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ قَائِمٌ يَخِطُبُ
فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ . . . » .

فعلى هذا فإن هذين الحديثين لا يصرحان على التوسل في زمن
« رسول الله » - صلوات الله وسلامه عليه - كان بتلك الصورة دوماً ،
لأن هذين الحديثين (لو افترضنا صحتها) لم يكونا نافيين لصور
أخرى .

السؤال الثالث :

ينقل « ابن حجر العسقلاني » في كتاب « فتح الباري » ، دعاء
العبّاس بعد توسل عمر ، بهذه الصورة :

« اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بِلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ وَلَمْ يَكْشَفْ إِلَّا بِتَوْبَةٍ وَقَدْ تَوَجَّهَ
الْقَوْمُ بِي إِلَيْكَ لِمَكَانِي مِنْ نَبِيِّكَ . . . » ^(١) .

إن هذا القسم يحكي عن أن توسل الخليفة هو بدعاء الشخص
الحي ، وليس التوسل بالشخص نفسه أو بشخصيته .

الجواب :

أولاً : لم ينقل البخاري في صحيحه ، في نقل الحديث شيء

(١) « فتح الباري » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٤١٣ ، طبعة دار المعرفة - لبنان .

غير ما نقلناه نحن في مستهل البحث . فلو كان هناك من دعاء بعد توسل عمر ، كان لزاماً عليه أن ينقله ، وألاً يخون عالم الحديث .

إن قول البخاري ظاهرياً هو أن دعاءه بعد توسل عمر أصبح مستجاباً ، وفي الحال هطل للناس المطر ، كما يقول :

« وَإِنَّا تَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا . قَالَ : فَيُسْقَوْنَ » .

فهو صحيح أن لا ينقل البخاري الجزء الأعظم من الحديث وسبب هطول المطر الذي كان نتيجة دعاء العباس ، وأن ينقل الموضوع بشكل يكون قسمه الأعظم لصالح الخليفة ؟!

ثانياً : ينقل ابن حجر العسقلاني عن « الزبير بن بكار » (أحد أحفاد الزبير بن العوام) ، وناهيك عن أن الزبير بن بكار كان منحرفاً عن أهل بيت علي ، فقد نقل أحاديث مفتعلة في فضيلة جدّه عبد الله الزبير^(١) ، الذي توفي في سنة ٢٥٣ بمكة . وبين وفاته و« عام الرمادة »^(٢) . فاصلة زمنية تقدر بمئتي وخمس وثلاثون سنة . ويتوجب علينا الآن أن نرى بأي سند نقل هذا الموضوع عن العباس . والمؤسف أنه لا يوجد كتاب الأنساب(*) في عصرنا الحاضر ، لكي نستند عليه ، ولم يذكر سنده ابن حجر العسقلاني ، فكيف يمكن في هذه الحالة الإستناد على نقل كهذا ؟

(١) « قاموس الرجال » ، المجلد ٤ ، الصفحة ١٥٠ - ١٥١ ، نقلاً عن « شرح الحديد » .

(٢) كان « عام الرمادة » على ضوء تصريح ابن حجر العسقلاني في سنة ١٨ الهجرية ، ولن يهطل المطر لمدة تسعة شهور بالكامل .

(*) الأنساب ، معجم تراجم مرتبة مواده على الألقاب والأنساب ، للسمعاني - م .

لقد قام الرفاعي في جميع روايات « التوسل » (بوضع المنشار على الخشخاش) [مثل فارسي] ويعني أنه غاص في جزئيات الموضوع ، وأضعف بذلك أحاديث التوسل المتواترة ، من حيث السند (في حين أن ليس السند مطروحاً في الأحاديث المتواترة ، بل إنه عندما يكون مجموع الأحاديث المفيدة مقرة و يقينية ، يكفي أن يحتج عليها ، حتى ولو كانت الأسانيد جميعها أو أغلبها غير صحيحة) . بيد أنه ، وبكل المصاعب في أحاديث التوسل بهذا المجال ، استسلم مغمض العين والأذن ، إلى نقل ابن حجر عن زبير بن بكار ، ولم يخطر بباله أبداً أن يلاحظ اسناد ذلك .

ثالثاً : فهل أن لهذين النوعين من التوسل تناقضاً الواحد مع الآخر ؟ أي مانع من أن يتوسل عمر بشخصه فقط ، وأن يقوم العباس أيضاً بالدعاء من أجل تحكيم الإجابة ؟ إن دعاء العباس لا يحول دون أن يقوم الناس بالتوسل بشخصه وشخصيته .

والحقيقة هي أن جميع المحدثين نقلوا هذه الأحاديث تحت عنوان « استسقاء » عمر ، واحتسبوها على عمر . كل ما هنالك هو أنه اتخذ من العباس وسيلة له في استسقاؤه ، بدليل أنه قرأ الخطبة ، وتكلم حول مقام العباس ، ثم أضاف :

« اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بَنِيِّنَا ، فَتُسْقِنَا ، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا . قَالَ : فَيُسْقُونَ » .

لقد كان في الحقيقة ، ركن الإستسقاء وجلاً حقيقته على كاهل توسل الخليفة بالعباس ، وإن كان العباس يقوم بالدعاء ، لكان عمل الإستسقاء لأنجز ، ولهذا يقول المحدثون (فيما

عدا الزبير بن بكار) ، « فيسقون » ، وإن كان العباس قد قام بالدعاء ، لكان عمل الإستسقاء في المرتبة الثانية ، ولم يكن له بذلك أية صلة بالخليفة .

ب : توسّل صفيّة إلى النبي الأكرم (ص) :
لقد أنشدت « صفيّة بنت عبد المطلب » عمّ النبي الأكرم (ص)
أشعاراً بمناسبة رحيل الرسول (ص) ، نورد منها ما يلي :

« أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ رَجَاؤُنَا
وَكُنْتَ بِنَا بَرّاً وَلَمْ تَكْ جَافِيّاً
وَكُنْتَ بِنَا بَرّاً رُتُوفاً نَبِيّاً
لِيَكْ عَلَيْكَ الْقَوْمُ مَنْ كَانَ بَاكِياً »^(١)

يستنتج من هذه القطعة الشعرية التي ألقيت في محضر صحابة الرسول الأكرم (ص) ، ونقلها المؤرخون وكتاب السيرة ، يستنتج منها ما يلي :

أولاً : إن التكلم مع الأرواح ، وبالأحرى مخاطبة الرسول الأكرم (ص) بعد وفاته ، كان أمراً جائزاً وشائعاً ، وليست هذه المخاطبة ، على العكس مما يفكر به الوهابيين ، شركاً أو عبثاً . كما

(١) « ذخائر العقبى ، في مناقب ذوي القربى » ، الصفحة ٢٥٢ ، تأليف « حافظ محب الدين ، أحمد بن عبد الله الطبري » (٦١٥ - ٦٩٤ هـ) ، مطبعة مكتبة القدس - القاهرة . و « مجمع الزوائد » المجلد التاسع ، الصفحة ٣٦ ، الطبعة الثانية - تأليف حافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي .

قال الله سبحانه في كتابه الكريم : ﴿ أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ .

ثانياً : لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام ، بمقتضى العبارة « أنتَ رجأؤنا » ، أمل المجتمع الإسلامي في كل الأحوال ، حتى أن صلته بنا لم تنقطع بعد وفاته . (لقد وردت طبعاً في كتاب « ذخائر العقبى » ، الذي نقلنا الأشعار عنه ، وردت عبارة « كُنتَ رجأؤنا » بدلاً عن « أنتَ رجأؤنا ») .

الإجابة على السؤالين

لقد حاول مؤلف « التوصل » لكونه لم يستطع أن يشوّه سند هذه القطعة التاريخية ، أن يحصل على موضع للإنتقاد . فهو ينقل عن كتاب « مجمع الزوائد » لحافظ الهيتمي ، ما قوله :

« رَوَى الطبرانيُّ بإسنادٍ حسنٍ عن عروة ابن الزبير قال : قالت صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله » .

فعلى هذا يقال :

« لقد ولد عروة ابن الزبير في سنة ٢٩ الهجرية ، وتوفيت صفية أم أبيه في سنة ٢٠ الهجرية . فضلاً عن ذلك ، لم ينقل ابن هشام في سيرته ما أنشدته صفية بنت عبد المطلب وهي ترثي النبي الأكرم (ص) » .

الإجابة :

لو كان « عروة بن الزبير » شخصاً أجنبياً ، لأمكننا أن نسأله من

أين حصل على هذه الأشعار ، بيد أنه عندما أصبح ابناً للعائلة المذكورة ، كان سيعلم بالتأكيد عن إنشاد جدته في رثاء الرسول الأكرم (ص) ، وذلك عبر تلك العائلة ، وسيعرف صواب وعدم صواب ذلك أحسن من الآخرين ، ويستبعد جداً أن ينقل شعراً كهذا عن لسان جدة أمه بدون بحث وتمحّص ، ولا بد أن هذا الشعر كان معروفاً في وسط العائلة ، فعلى هذا لم يذكر واسطة للأدريون .

بيد أن عدم إتيان ابن هشام بقصيدة صفية في سيرته ، لا يلحق أذى بالموضوع ، لأنه جاء بقصيدة حسان بن ثابت فقط في سيرته ، في حين أن القرائح العربية لم تسكت أمام مصاب كهذا ، وأنشدت الأشعار في رثاء الرسول الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بدليل أن لـ « عاتكة بنت صفية » قصيدة ، نقلها « ابن سعد » في « كتاب الطبقات الكبير »^(١) ، بيد أن ابن هشام لم يشر إلى ذلك .

* * *

٣ - الاستدلال بالأحاديث

الحديث الأول : حديث عثمان ابن حنيف

إرتداد بصر الأعمى نتيجة توسله إلى النبي الأكرم (ص) :

« إِنَّ رَجُلًا ضَرِيرًا أَتَى إِلَى النَّبِيِّ (ص) فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَعَافِنِي فَقَالَ إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ وَإِنْ شِئْتَ صَبِرْتُ وَهُوَ خَيْرٌ قَالَ فَادْعُهُ ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيَحْسَنَ وُضُوءَهُ وَيُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَيَدْعُو بِهِذَا الدُّعَاءَ :

(١) « كتاب الطبقات الكبير » ، المجلد الرابع ، الصفحة ٣٢ ، طبعة بيروت .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ ، وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي لِتَقْضِيَنِي ، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ .
قال ابنُ حَنِيفٍ فوالله ما تفرقنا وطالَ بنا الحديثُ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْنَا كَأَن لَمْ يَكُنْ بِهِ ضَرٌّ .

كلام عن سند الحديث :

لا شك في اتقان وصحة سند الحديث ، واعتبر « ابن تيمية »
إمام الوهابية هذا السند صحيحاً ، وقال أن المقصود من « أبي جعفر »
الموجود في سند الحديث ، هو « أبو جعفر الخطمي » نفسه ، وهو
موضع « ثقة »^(١) .

يقول الكاتب الوهابي المعاصر « السيد الرفاعي » ، والذي
يحاول أن يحيط من مكانة أحاديث التوسل ، يقول حول هذا
الحديث :

« لا شك أن هذا الحديث صحيحٌ ومشهورٌ وقد ثبت فيه بلا شك
ولا ريبٍ إرتداد بَصَرِ الأعمى بدعاء رسولِ الله »^(٢) .

إنَّ ما يقوله كونه أبصر بدعاء الرسول الأكرم (ص) ، وهو مقولة
تعيين التزح أثناء الوعد ، بل أنه شفي في ضوء الدعاء الذي علَّمه
الرسول الأكرم (ص) . . وستقرؤون تفاصيل ذلك .

(١) لقد وصف « أبو جعفر » في المسند لأحمد بن حنبل بالمخطمي ، رغم أن لفظة « أبو جعفر » جاءت في صحيح ابن ماجه (محمد بن يزيد القزويني) بصورة مطلقة .
(٢) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ١٥٨ .

يقول الرفاعي في كتاب « التوصل » : لقد نقل هذا الحديث (النسائي - حمد بن علي شعيب أبو عبد الرحمن -) و (البيهقي) و (الطبراني) و (الترمذي) و (الحاكم) في مستدرکهم ، وأن الشخصين الآخرين بدلاً عن جملة « وشفعه في » نقلاً كالتالي : « اللهم شفعني فيه »^(١) .

يكتب دحلان (أحمد بن زيني) في « خلاصة الكلام » :

« لقد نقل هذا الحديث ، البخاري في تاريخه ، وابن ماجه القزويني والحاكم في المستدرک بأسانيد صحيحة ، وجمال الدين السيوطي في جامعه »^(٢) .

إن مؤلف هذا الحديث ينقل عن الأسانيد التالية :

١ - « السنن لابن ماجه القزويني »^(٣) .

ينقل « ابن ماجه » عن « أبي إسحاق » أن :
« هذا حديث صحيح » .

ثم يضيف :

أن هذا الحديث نقله الترمذي في كتاب « أبواب الأدعية » ،
وقال :

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٣٠٩ .

(٣) « سنن ابن ماجه » ، المجلد ١ ، الصفحة ٤٤١ ، منشورات دار إحياء الكتب العربية - لعيسى البابي وشركاءه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، تسلسل الحديث ١٣٨٥ .

« هذا حَدِيثٌ حَقٌّ صَحِيحٌ غَرِيبٌ » .

٢ - « المسند لأحمد بن حنبل »^(١) ، لقد نقل هذا الحديث عن ثلاثة طرق .

٣ - « المستدرک للحاکم »^(٢) ، وبعد أن ينقل الحديث ، يقول :

« هذا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرَطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ » .

٤ - « الجامع الصغير »^(٣) ، تأليف السيوطي ، نقلاً عن الترمذي « و » المستدرک « للحاکم .

٥ - « تلخيص المستدرک » تأليف الذهبي « مصطفى بن حنفي » المتوفي سنة ٧٤٨ هـ ، والمطبوع في هامش المستدرک .

٦ - « التاج »^(٤) ، لقد ضَمَّ هذا الكتاب أحاديث « الصحاح الخمسة » فيما عدا « ابن ماجه » ، فعلى هذا لا مجال في سند الحديث للبحث والنقاش ، المهم هو دلالة الحديث على كلامنا .

ضبعوا هذا الحديث في متناول شخص ملم باللغة العربية . شخص يكون ذهنه خالياً من نقاشات الوهابيين بصدد مسألة التوسل ،

(١) « مسند ابن حنبل » ، المجلد ٤ ، الصفحة ١٣٨ ، عن المسند لعثمان بن حنيف ، طبعة المكتب الإسلامي . مؤسسة دار الصادر - بيروت .

(٢) « مستدرک الحاکم » ، المجلد الأول ، الصفحة ٣١٣ ، أوفست - طبعة حيدر آباد .

(٣) « الجامع الصغير » ، الصفحة ٥٩ .

(٤) « التاج » ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٨٦ .

ثم اسأله ماذا أمر الرسول الأكرم (ص) في دعائه الذي علّمه للأعمى ؟ وكيف أرشده في استجابة دعائه ؟ فسوف يقول لكم على الفور : أن الرسول الأكرم (ص) علّمه أن يتخذ من رحمة الرسول (ص) وسيلة له ، وأن يسأل الله عز وجل لينقذ حاجته ، ويمكن استخلاص هذا الموضوع بشكل جيد من العبارات التالية :

أ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ نَبِيَّكَ » .

إن لفظة « نبيك » متعلقة بالجملتين السابقتين : إحداهما « أسألك » والأخرى « أتوجه إليك » .

وبعبارة أوضح ، فإنه يسأل الله تعالى بوسيلة النبي (ص) ويلتفت بوجهه إلى الله سبحانه بوسيلته كذلك ، والمقصود بالنبي ، هو النبي نفسه ، وليس دعاء النبي ، وأن تقدير لفظة « الدعاء » علاوة على أنه لا دليل لها ، فهي خلاف البلاغة . وأن الذي يجعل من لفظة الدعاء مُقدّرة ليس دعواه على هذا التقدير شيء سوى حكم مسبق ، لأن الشخص الذي يتخذ لفظة كهذه في التقدير ، ولكونه لا يعتبر التوسل بالأشخاص شيئاً صحيحاً ، فهو يجهد عنوة ، حيث تكون لفظة « الدعاء » مقدرة ، لثلاث تكون خلاف فكره .

ب : لكي يتضح أن مقصود السؤال من الله تعالى ، هو من أجل النبي الأكرم (ص) ، والتوجه بوسيلته ، فقد وصف لفظة : « نَبِيَّكَ » بعبارة « مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ » ، حيث تجلي الحقيقة أكثر وتجعل الهدف أوضح .

ج : تدل عبارة : « يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّي » ، أنه

يتخذ من النبي محمد (ص) وجهة دعاءه ، وليس من دعاء النبي الأكرم (ص) وجهة لدعائه .

د : أن مفاد الجملة : « وَشَفَّعُهُ فِيَّ » هو اللهم إجعل شافعاً لي ، وإقبل شفاعته لي .

إن ما هو موضع البحث والكلام في جميع هذه العبارات ، هو النبي الأكرم (ص) نفسه ، وشخصيته ذات المكانة الأسمى ، وليس في الأمر كلام عن دعاء النبي الأكرم (ص) .

الإجابة على خمس أسئلة :

السؤال الأول : هل أن الرجل الضرير طلب من النبي (ص) أن يدعو له ، وبالأحرى توسّل بدعائه ، لدى دخوله على النبي ، أو أنه كان يريد أن يتوسل إلى شخص أو مقام النبي الأكرم (ص) ، وأن يسأل الله عز وجل أن يعافيه .

الإجابة :

لا ريب أنه كان منذ اللحظة الأولى يسأل النبي الأكرم أن يدعو له ، وكان متوسلاً لدعائه ، ولم يكن بباله أن يتوسل لشخص النبي (ص) وشخصيته الكريمة .

بيد أن روح الكلام يكمن في أنه حتى إذا كان الأعمى يروم مسألة الدعاء ، بيد أنه ماذا علّمه النبي (ص) وبأي شيء أرشده ؟ فهل هو غير أنه أمره ، أن يتوسل إلى رسول الرحمة (ص) ، وأن يتخذه شافعاً له في العتبة الإلهية المقدسة ؟

لقد أثبت الرفاعي في كتابه : « التوصل إلى حقيقة التوسل » من خلال الأدلة الست ، أن الأعمى كان يقصد التوسل بدعاء النبي (ص)، وليس بشخصه ، بدليل أن النبي الأكرم (ص) قال :

« أدعُ الله أن يُعافيني » .

فأجابه النبي (ص) قائلاً :

« إن شِئْتَ دَعَوْتُ »^(١) .

فقال الأعمى رداً على النبي (ص) :

« أدعُهُ »^(٢) و » .

أننا نسأل السيد الرفاعي : ما هو قصدكم من أن الأعمى كان متوسلاً بدعاء النبي الأكرم (ص) ، وليس بشخصه وشخصيته هو؟ فعندما يكون المقصود هو أن الأعمى كان متوسلاً إلى دعاء النبي (ص) قبل أن يعلمه النبي ويرشده . . . فإن هذا الكلام صحيح وثابت ، وأن الأدلة التي نقلناها عنه ، تبرهن على هذا الموضوع ، ولهذا امثل أمام رسول الله (ص) لكي يدعوله . فإذا كان هدف التوسل بشخص ومقام النبي (ص) ، فلم يستلزم حينئذ أن يمثل أمام رسول الله .

ولكن إذا كان المقصود هو أنه توسل ثانية إلى دعاء

(٢، ١) يتضح من خلال أن النبي الأكرم (ص) لم يدع شخصياً ، بل أنه علمه الدعاء ، أن المقصود من هاتين الجملتين هو أصل « الدعاء » ، سواء كان دعاء النبي (ص) بشكل مباشر ، أو دعاء الشخص نفسه لتعليمه ، وأن النبي علمه التوسل إلى « نبي الرحمة » . وسيأتيكم توضيح هذا القسم لاحقاً ، إنشاء الله .

رسول الله (ص) بعد أن علّمه ، وليس بدعائه ولا بشخصه أو مقامه ومكانته . . فإن هذا الكلام لا أساس له ولا دعامة ، وأن العبارات التي وردت بصدد تعليم النبي الأكرم (ص) هي برهان على عكس ذلك . لقد أخبره النبي (ص) أن شروط استجابة دعاءك تتوقف على شيئين :

١ - أن تتوضأ وتؤدي الصلاة .

٢ - وأن تتوسل برسولك محمد (ص) نبي الرحمة ، وأن تتخذه وجهة لنفسك في العتبة الإلهية المقدسة و . . .

أن السيد الرفاعي يثبت بأدلة ، أن هدف الأعمى كان منذ البداية مسألة الدعاء من النبي الأكرم (ص) ، فنقول نحن في جوابنا له : « سَلَّمْنَا وَوَأَمَّنَّا » ، حيث أن هدف الأعمى بحديثه مع النبي (ص) كان التوسل بدعائه فقط ، وأنا نقبل جميع أدلتكم الستة ، بيد أن روح الكلام يكمن في مكان آخر ، وهو أنه ماذا علّمه النبي صلوات الله عليه ؟ تمحصوا في عبارات النبي (ص) وجمله ، لكي تصلكم إجابتنا .

وبعبارة أخرى : هل أن النبي (ص) علّمه ليتوسل إلى دعائه ، فإن هذا العمل ليس سوى نتاج شيء آخر ، والذي كان يعرفه الأعمى أيضاً منذ البداية ، وكان متوسلاً بدعائه ، فلم يقتض الأمر أن يقوم النبي الأكرم (ص) بأمره ، لأن يتوضأ وأن يقرأ ذلك الدعاء الخاص .

من الممكن أن يجري تصور أن للتوسل بدعاء النبي مراسيم خاصة به ، وأراد النبي أن يعلم هذه المراسيم آياه . ولكنها واضحة وضوح الشمس إن فكرة كهذه ليست سوى وهم ، لأنها ليست المرة

الأولى أن يطلب الصحابة ، الدعاء من رسول الله (ص) ، أو أن يكون القرآن الكريم قد دعاهم إلى التوسل بدعائه ؛ بل أن هذه الأمور وقعت كراراً ، ولم ترد في أي مورد مراسيم كهذه .

السؤال الثاني :

هل أن الرجل الأعمى أصبح بصيراً نتيجة الدعاء الذي علّمه النبي الأكرم (ص) إياه ، أم نتيجة أن النبي دعا له ، وعلى أثر هذا الدعاء أصبح بصيراً ؟

الإجابة :

فلو أخذنا ظاهر الحديث ، لأوجب أن نقول ، أن النبي الأكرم (ص) إكتفى بالدعاء الذي علّمه للأعمى ، وشفي هو نتيجة التوسل إلى نبي الرحمة (ص) ، وأنه توجه إلى عتبة الحق تعالى بواسطته ، وسأل الله سبحانه أن يلبي طلبه ، ولم يقم النبي الأكرم (ص) بأي دعاء آخر من أجله . فلو كان النبي (ص) يقوم بالدعاء من أجله ، لكان عثمان بن حنيف والآخرين الذين كانوا في المجلس قد نقلوا ذلك ، ويدل طي الحديث أن عثمان بن حنيف كان بجوار النبي الأكرم (ص) إلى اختتام المجلس ، فلو كان يقوم النبي بدعاء كهذا ، لنقله بالتأكيد .

فهو يقول :

« فَوَاللَّهِ مَا تَفَرَّقْنَا وَطَالَ بِنَا الْحَدِيثُ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْنَا كَأَن لَّمْ يَكُنْ بِهِ ضُرٌّ » .

السؤال الثالث :

إذا كان النبي الأكرم (ص) قد اكتفى بنفس الدعاء ، فما معنى عبارة « إن شئت دَعَوْتُ » . إذن ؟

الإجابة :

صحيح أن ظاهر هذه العبارة هو أن النبي (ص) وعد أن يقوم بالدعاء من أجله ، ولكن بدليل صمت الراوي عن دعاء النبي يحدو بنا أن نقول أن المقصود هو نفس الدعاء الذي علّمه للأعمى ، وبالأحرى فالهدف هو « الدعاء التسبيحي » ، حتى ولو تم ذلك بوسيلة الأعمى نفسه ، ولا « الدعاء المباشر » الذي يباشر به النبي (ص) نفسه شخصياً .

وعلى كل حال ، فإن هذا الموضوع لا يخلق تغييراً في مفاد الحديث ، سواء كان شفاؤه بوسيلة الدعاء الذي علّمه النبي (ص) إيّاه ، أو بوسيلة دعاء النبي من جديد الذي يتم بعد التوسل ، وفي النهاية أمره النبي (ص) أن يتوسل إلى نبي الرحمة ، وأن يتخذ وجهه لنفسه .

السؤال الرابع :

إذا كان ارتداد بصير الأعمى بدعاء رسول الله (ص) ، فما الحاجة إلى الدعاء الذي علّمه النبي (ص) للأعمى ؟

الإجابة :

إن التوسل بـ « النبي الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم و « توسيط عزيز للعتبة الإلهية » ، هو من أحد الأعمال الصالحة ، التي توجد في الإنسان الأهلية والجدارة لنزول رحمة الرحل ، ويضحى دعاء النبي الأكرم (ص) من أجل جماعة مستجاباً ، الجماعة التي تمتلك أرضية استجابة الدعاء ، ولهذا لا يكون مستجاباً بحق الكافر والمنافق .

يقول « القرآن الكريم » بصدد المنافقين :

﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ (١) :

وذلك لأن قلوبهم وأرواحهم لا تستحق نزول الفيض الإلهي .

فضلاً عن ذلك ، فقد ذكرنا سابقاً أن دعاء النبي (ص) المجدد هو مشكوك وغامض تماماً ، وظاهر الحديث هو أن النبي الأكرم (ص) اكتفى بنفس التعليم فقط ، فلهذا ، لن يكون لهذا السؤال توجهاً كثيراً .

السؤال الخامس :

يوجه السيد الرفاعي الحديث الآنف الذكر بالشكل التالي ،
قائلاً :

(١) سورة التوبة : الآية ٨٠ .

« إِنَّ مَعْنَى « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِنَبِيِّكَ » أَيُّ بَدْعَاءِ نَبِيِّكَ وَلَا يُفْهَمُ مِنْهُ التَّوَسُّلُ بِالنَّبِيِّ » .

الإجابة :

إننا نترك الحكم على هذا التفسير بعهدة ذوي القلوب اليقظة .
فهل يحق لنا يا ترى أن نقوم بتصرفات غير لائقة كهذه في الحديث ؟ !
لأنه ، ناهيك عن أنه لن يكون لتوسل كهذا ثمرة بعد ، وأن هذا الفرد كان قبل تعليم النبي الأكرم (ص) متوسلاً بدعائه ، وكان يسأل النبي (ص) ، الدعاء . فيجب أن نتدخل ونتصرف بصدد الحديث ، ونقول :

- ١ - نَبِيِّكَ : أَيُّ بَدْعَاءِ نَبِيِّكَ .
- ٢ - يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ : أَيُّ أَتَوَجَّهُ بِدُعَائِكَ .
- ٣ - اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ : شَفِّعْ دُعَائَهُ فِيَّ .

فليس لهذه التصرفات دافع سوى الحكم المسبق ، لا غير .

فعندما يكون مقصود التوسل هو بدعاء النبي (ص) ، وليس بشخصه وشخصيته ، فما الداعي لتوصيف « النبي » بـ « نبي الرحمة » ؟ فهل لا يعني هذا التوصيف أن الهدف من التوسل بشخصية عالية الشأن التي يشكّل وجودها « رحمةً للعالمين » ، ويجب عبر هذا الطريق أن يتخذ الأعمى تحت غطاء رحمته ؟ .

فلو لم يكن حضرة الرفاعي وزملائه في الفكر قد ترعرعوا في مرحلة الطفولة في المدرسة الوهابية ، وإن لم يكونوا تحت نفقة الأنعام

والألطاف السعودية ، فهل إنهم كانوا يطلقون ثانية أحكاماً كهذه ؟

وفي الختام نورد كلاماً حول الحديث عن « الشيخ منصور علي ناصيف » - أحد علماء مصر الأفاضل في القرن المعاصر ، ومؤلف : « التاج للأصول في أحاديث الرسول » . فهو بعد أن ينقل الحديث ويصادق على صحته عبر الترمذي وابن ماجه ، يكتب :

« فهذه النصوص الصحيحة تُفيد أن التوسل إلى الله بالصالحين جائز بل مطلوب في الشدائد . . . وتقدم في كتاب النية أن أصحاب الغار توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم فأجابهم الله فإذا ثبت التوسل بصالح العمل ، فأولى وأفضل وأعلى بالصالحين الذين هم مصدر الصالحات . . . والإنصاف خير من التشفيع للمذهب والرجوع للحق فضيلة ومع هذا ففي تحقيق هذا الموضوع مؤلفات خاصة منها مؤلف لصاحب الفضيلة الشيخ محمد حسنين العدوي وكيل الأزهر ومدير المعابد ، سابقاً ومنها فتاوى لصاحب الفضيلة الشيخ يوسف الدجوي من كبار العلماء في مجلة نور الإسلام » .

الحديث الثاني : التوسل بحق السائلين

ينقل « عطية العوفي » عن « أبي سعيد الخدري » أنه : قال « الرسول الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم - : من خرج من بيته للصلاة ، قرأ الدعاء المذكور أدناه ، أقبل الله بوجهه واستغفر له ألف ملك^(١) .

(١) الرجوع إلى صحيح حافظ محمد بن أبي عبد الله بن ماجه القزويني ، والذي يعتبر =

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا وَلَا رِيَاءً وَلَا سَمْعَةً وَخَرَجْتُ اتِّقَاءَ سَخَطِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُعِيدَنِي مِنَ النَّارِ وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ » .

إن الحديث المذكور هو من الأحاديث الواضحة جداً ، التي تبرهن على أن الإنسان يستطيع في حالة مسألة الحاجة من الله جلّ جلاله ، أن يتخذ من مقام الصالحين ومكانة الحق وشأنهم واسطة لنفسه ، وأن دلالة الحديث على مقصودنا واضحة .

بيد أن مخالف في الحديث أرادوا بسبب الحكم المسبق ، أن يضعوا العراقيل في دلالة الحديث وسنده ، وليس لديهم دافع للإلتباسات الطفولية التي سوف تتطلعون عليها ، سوى الدفاع عن العقيدة التي وصلت إليهم عن طريق الأسلاف . وإليك الإلتباس في دلالة الحديث :

الحديث برهان على التوسل بصفة « المجيب » :
ينقل الرفاعي عن أحد أقرانه في الفكر ، أن الحق الذي يمتلكه الصالحين على الله سبحانه هو ما ورد في الآية أدناه ، حيث يقول :
﴿ أَدْعُونِي اسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (١) .

= برأي الكثير من المحدثين ، من إحدى الصحاح الستة ، المجلد الأول ، باب المساجد ، الصفحة ٢٦١ و ٢٦٢ ، طبعة مصر . و « المسند » للإمام أحمد بن حنبل ، المجلد الثالث ، الحديث ٢١ .
(١) سورة المؤمن : الآية ٦٠ .

فعلى هذا ، أن هذا التوسل بحق السائلين هو في الحقيقة توسل بصفة « إجابة » الله سبحانه وتعالى ، ويجوز التوسل بالأسماء والصفات الإلهية^(١) .

الإجابة :

إن « توسيط المخلوق » أو مقامه ومكانته ، هو برأي « المستشكل » نوع من الشرك ، حيث يجب تنزيه ساحة الأنبياء منه . فإذا كان مقصود « حق السائلين » حقاً هو صفة « المجيب » لله تعالى ، فلماذا عدل عن التوسل بصفة « المجيب » بالتوسل بـ « حق السائلين » ، فإن لم يكن شركاً فهو بصورة الشرك ولونه على الأقل . فإذا كان قصده ذلك حقاً ، حيث توهم ، فلماذا جعل « ألا كل من القفاء » ، وبدلاً من أن يقول :

« اللَّهُمَّ يَا مُجِيبٌ » .

فقد قال :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ » .

فعندما نقبل نحن هذا التأويل بـ « حق السائلين » ، لا يمكن أبداً قبول ذلك في الجملة الثانية ، لأن الجملة الثانية تقول :

« أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا » .

« الممش » إسم مكان وزمان ، المضاف إلى ضمير المتكلم : جاء في « المسجد » :

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ٢١٣ .

« الممشى : مكان التمشي موضع المرور على المحل .

جمعه : ماشي .

فماذا يقول المنتقص في هذا التوسيط ؟ وهل أن التوسل بالزمان المقدس ومكانه جائز ، أما التوسل بالصالحين والمنزهين وأعضاء عتبة الله تعالى فيعتبره غير صحيح .

إشكال في سند الحديث :

لقد ورد إسم عطية العوفي في سند الحديث ، حيث أضعف النسائي وأحمد بن حنبل حديثه ، واعتبره البعض « شيعي مدلس » .

الإجابة :

إن إحدى وسائل جرح وتضعيف الراوي عند رجال السنة وعلمائهم ، هو « التشيع والولاء لأهل البيت » . فكلما كانت مكانة شخص ما ، مرموقة جداً من حيث الوجاهة والثاقة ، إلا أنه يقتدي في حياته بأهل البيت ، ويعتبر باب العلم منحصراً بـ (علي بن أبي طالب) عليه السلام ، وأن يحصل من آل البيت على العلوم والمعارف ، فيكون قد اقترف جريمة كبيرة لدى محدثوا أهل السنة ورجالهم ، ولم يكن له « عطية بن سعد بن جنادة الكوفي » جرماً سوى أن والده كان من أصحاب الإمام علي (ع) . ولهذا نقل « الذهبي » و « ابن حجر » وغيرهم هذه العبارات كذلك :

« قال سالم المرادي : كان عطية يتشيع » .

« قَالَ ابْنُ مُعِينٍ : صَالِحٌ » .

« قَالَ ابْنُ حَجَرٍ : صُدُوقٌ يُخْطِئُ كَثِيرًا » شِيعِيٌّ وَمُذَلِّسٌ مات . . . » (١) .

إننا ندع حديث الذهبي وابن حجر جانباً ، حيث أن بينهما مسافة زمنية من حيث العصر والطبقة ، وبين عطية ، تقدر بعدة مئات من السنين . ونسأل عن ثباته واستقامته في سبيل العقيدة والدين والصلاح والنزاهة ، من أكبر كتاب البيوغرافيا في الإسلام ، يعني « ابن سعد - محمد الزهري - » مؤلف « كتاب الطبقات الكبير » ، والمعروف بكتّاب الواقدي (ولد في البصرة سنة ١٦٨ ، وتوفي في بغداد سنة ٢٣٠) . حيث يقول عن سيرة حياته ما يلي :

« ولد عطية ابن سعد في فترة حكومة الإمام علي (ع) ، فحمله والده إلى الإمام ، وطلب منه أن يختار له إسماً . فقال الإمام : « هذا عطية الله » . . . »

كان أحد المنتفضين بوجه حكومة الحجاج ، وهرب بعد الهزيمة إلى أرض فارس . فكتب الحجاج خطاباً إلى حاكمه محمد بن قاسم ، طلب فيه أن يدعوا عطية ليلعن الإمام علي (ع) ، وإن لم ينصاع جلده أربع مئة جلدة وحلق رأسه وذقنه . فطلب الحاكم إحضار

(١) « الذهبي » ، مؤلف كتاب « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) ، وقد ولد « عطية عوفي » في فترة حكم الإمام علي (ع) (٣٠ - ٣٥) ، وتوفي في سنة ١١١ . (المجلد ٣ ، الصفحة ٧٩ و ٨٠) .

عطيةً وقرأ عليه خطاب الحجاج ، بيد أنه لم يقبل سب الإمام علي (ع) ، ونفذ بحقه أوامر الحجاج .

وبعد مدة من الزمن ، سافر في عهد حاكمية « قتيبة » إلى خراسان ، وعندما تسلم عمر بن هبيرة مقود الأمور في الكوفة ، حصل هو على تجوزة الدخول إلى الكوفة ، وقضى حياته هناك ، إلى أن توفي في عام ١١١ هـ . . .

ثم يقول :

« وَكَانَ ثِقَّةً إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَهُ أَحَادِيثُ صَالِحَةٌ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَحْتِجُّ بِهِ »^(١) .

ويقول ابن قتيبة [الكوفي أو الدينوري] في معارفه :

« وَكَانَ فَقِيهًا فِي زَمَنِ الْحَجَّاجِ وَكَانَ يَتَشَبَّهُ » .

ويكتب الطبري بعد أن ينقل حادث حاكم الحجاج ، قائلاً :

« وَكَانَ كَثِيرَ الْحَدِيثِ ثِقَّةً »^(٢) .

ينقل المرحوم محدث القمي في « سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار » عن « ملحقات الصراح » ، أن عوفي كتب تفسيراً بخمس

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ، المجلد ٦ ، الصفحة ٢١٢ و ٢١٣ . طبعة ليدن ١٣٢٠ ق .

(٢) « سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار » ، المجلد ٢ ، الصفحة ٣٠٥ ، نقلاً عن « الذيل المذيل » للطبري .

مجلدات . وكان يقول : سمعت تفسير القرآن الكريم عن أبي العباس
ثلاث مرات ، وقرأته عليه سبع مرات .

هو أحد رواة خطبة « فاطمة الزهراء » - عليها السلام - عن طريق
عبد الله بن الحسن^(١) ، كان من آل عطية من عوائل الشيعة في
العراق . ولقد انتفض أبناء من هذه العائلة ، كان لكل منهم مكانة
مرموقة في القضاء والمحاكم العراقية : حسين بن حسن بن عطية
المتوفي سنة ٢٠١ ، ومحمد بن سعد بن محمد بن الحسن بن عطية ،
الذي كان في حينه قاضي بغداد .

لم يكن ذنب هذه العائلة شيء سوى التشيع ، ولا غير ، فلهذا
ينقل عنه أبو داود والترمذي في سننهم ، وينقل أيضاً الحديث عن
محدثين من أمثال ابن العباس ، وأبو سعيد خذري و . . . غيرهم .

من تلامذته : حسن بن عطية ، والحجاج بن أرطاة ، ومسرر
[بن كدام الهلالي العامري] ، وحسن بن عدوان ، وآخرون .

أن الشخص الذي يتشرد في سبيل الدين وعشق الحقيقة ، إلى
هذا الحد ، والذي لم يقبل الرضوخ محافظاً على حقوق الإمام
علي بن أبي طالب - عليه السلام - ، وعلي مقامه وفضيلته . . أن
شخصاً كهذا لا يمكن أن يكون ضعيفاً ومدلساً .

فضلاً عن ذلك ، يصرح ابن سعد عن وثاقته ، واعتبره ابن معين
نقلاً عن الذهبي نفسه بالصالح ، وسمّاه ابن حجر ، بالصدوق .

(١) « بلاغات النساء » ، الصفحة ١٢ . تأليف أحمد بن أبي طاهر المعروف بابن
طيغور ، المتوفي سنة ٣٨٠ .

إن هذا الحجم من التعريف والتوصيف يكفيان شخصاً عاش عواصف وأحداث التشيع والتسنن، ورفع راية مواجهة أكثر رجال بني أمية (الحجاج بن يوسف الثقفي) دموية، لأن وسائل بني أمية وبني العباس الدعائية كانت تحاول تعريف مثل هؤلاء الأشخاص بأسماء سيئة وغير موضع ثقة.

ونشير في النهاية إلى أن الرفاعي نقل عن ابن حجر عبارة: «شيعي مدلس»، بيد أننا لم نجد هذه العبارة في كتب ابن حجر بترجمة عطية، وأن كتب رجاله، هي على الوجه التالي:

١ - «لسان الميزان»، فهو لم يجعل من عطية في هذا الكتاب عنواناً أبداً.

٢ - «تهذيب التهذيب»، وأفرد له في هذا الكتاب عنواناً، بيد أنه لم يقل عنه عبارة كهذه.

٣ - «الإصابة في تمييز الصحابة»، لم يفرد في هذا الكتاب لـ «عطية» عنواناً.

وعلى كل حال، فإن هذا النوع من الانتقاد الموجه لشخصية كعطية، ليس مؤثراً، وأن ذنبه الوحيد هو تشيعه، ولهذا يكتب ابن حجر في «تهذيب التهذيب» ص ٢٢٦، وبعد أن يبين مشايخه التسعة، وتلاميذه الذين يفوقون الخمسة عشر، يكتب:

«وكان يعد مع شيعة أهل الكوفة روى عنه جلة الناس وكان يقدم علياً على الكل».

أن التمحص في هذه الجملة يوضح دافع انتقاده وتضعيفه.

الحديث الثالث :

يتوسل النبي آدم (عليه السلام) إلى النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) :

بعد أن لم ينصاع آدم (ع) لأوامر الله سبحانه وتعالى^(١) ، تاب على ضوء الكلمات التي تلقاها من الله سبحانه ، كما يذكر ذلك في القرآن الكريم :

﴿ قَتَلَنِي آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾^(٢) .

أن لجماعة من المفسرين والمحدثين الإسلاميين ، رأي حول

(١) أن الأمر الذي جاء في الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٥) ، هو ليس « دستور المولوي » ، بل هو « نهى إرشادي » ، وبالأحرى له جانب النصيحة وإسداء النصائح ، ولا يمكن للمخالفة بدستور كهذا ، أن يكون موضع عقاب وموآخذة ، بل أن نتيجة ذلك فقط هي مواجهة الأثر الوضعي للعمل نفسه .

فإذا أمر الطبيب مريضاً ألا يتناول في حالة الإستيراد ، الطرشي والبطيخ ، فلا يؤدي مخالفة ذلك سوى إلى حدة المرض . تصرح آيات بينات في القرآن الكريم ، أن النهي الإلهي كان نهياً إرشادياً ، وليست نتيجة ذلك شيئاً سوى الخروج من الجنة ، والتي تعتبر الأثر الوضعي للعمل ، ولم يكن شيء آخر سواه . الرجوع إلى الآيات ١١٨ و ١١٩ من « سورة طه » ، وإلى كتاب « التفسير لآيات القرآن الصعبة » الموضوع العاشر الصفحة ٧٣ - ٨٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٧ .

تفسير الكلمات التي وردت في الآية ، وبالتمعن بنص الآية الشريفة
أذناه ، يتضح رأي هؤلاء .

لقد نقل « الطبراني » في « المعجم الصغير » ، « والحاكم
النيشابوري » في « مستدرک الصحاح » ، و « أبو نعيم الأصفهاني » ،
و « البيهقي » في كتاب « دلائل النبوة » ، و « ابن عساكر الشامي » في
تاريخه ، و « السيوطي » في « الدر المنثور » ، و « الألوسي » في
« روح المعاني »^(١) ، نقلوا بسند عن عمر بن الخطاب ، أن « النبي
الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم - قال :

« لَمَّا أَذْنَبَ آدَمُ الَّذِي أَذْنَبَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ أَسْأَلُكَ
بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إِلَّا غَفَرْتَ لِي فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ وَمَنْ مُحَمَّدٌ ؟ فَقَالَ : تَبَارَكَ
أَسْمُكَ ، لَمَّا خُلِقْتَ رَفَعْتَ رَأْسِي إِلَى عَرْشِكَ فَإِذَا « فِيهِ مَكْتُوبٌ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقُلْتُ : إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ عِنْدَكَ قَدْرًا
مِمَّنْ جَعَلْتَ اسْمَهُ مَعَ اسْمِكَ فَأَوْحَيْ إِلَيْهِ أَنَّهُ آخِرُ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ
وَلَوْلَا هُوَ لَمَّا خَلَقْتُكَ »^(٢) .

وجهة نظرنا بصدد هذا الحديث :

١ - لقد أطلقت في « القرآن الكريم » خلافاً لما هو مشاع بيننا ،

(١) المستدرک لحاكم النيشابوري ، المجلد الثاني ، الصفحة ٦١٥ - «روح المعاني» ،
المجلد الأول ، الصفحة ٢١٧ - « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » ، المجلد
الأول ، الصفحة ٥٩ - نقلًا عن الطبراني وأبي نعيم الأصفهاني والبيهقي .

(٢) أُجِذْ نص الحديث عن « الدر المنثور » ، وهناك اختلاف طفيف بين هذا ، والنص
الذي نقله الحاكم النيشابوري في « مستدرک الصحاح » ، رغم أن مضمونها واحد .

تعبير « الكلمات » على الذوات والشخصيات ، مثلاً :

أ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِحَيٍّ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ (١) .

ب - ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (٢) .

ج - ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ﴾ (٣) .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ ﴾ (٤) .

هـ - ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ (٥) .

استناداً إلى ما ورد في الآية موضع البحث من لفظة « كلمات » ، يمكن القول أن المقصود من « الكلمات » هو نفس الشخصيات الفاضلة لـ « الذوات المقدسة » ، التي جرى التوسل - بها ، ولهذا فقد نقلت هذه الحقيقة في روايات الشيعة بصورة أكثر وضوحاً :

« إِنَّ آدَمَ رَأَى مَكْتُوباً عَلَى الْعَرْشِ أَسْمَاءَ مُعَظَّمَةٍ مُكْرَمَةٍ فَسَأَلَ

(١) سورة آل عمران : الآية ٣٩ .

(٢) نفس السورة : الآية ٤٥ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٧١ .

(٤) سورة الكهف : الآية ١٠٩ .

(٥) سورة لقمان : الآية ٢٧ . (أن المقصود من « الكلمات » في هذه الآية ، والآية السابقة هو المخلوقات الإلهية) .

عَنْهَا ، فَقِيلَ لَهُ هَذِهِ أَسْمَاءُ أَجَلِ الْخَلْقِ مَنزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَسْمَاءُ مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ، فَتَوَسَّلَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى رَبِّهِ فِي قَبُولِ تَوْبَتِهِ وَرَفْعِ مَنَزِلَتِهِ ^(١) .

لقد ورد في أحاديث الشيعة الأخرى ، أوضح من هذا كذلك ، وتدل بجلاء أن آدم - عليه السلام - شاهد أشباحاً نورانية لخمس أشخاص . للإستزادة من المعلومات ، الرجوع إلى الروايات في تفسير البرهان ^(٢) .

١ - يمكن استناداً إلى الروايات الكثيرة التي وردت بهذا الصدد من قبل علماء الشيعة ، التيقن من صحة الرواية .

٢ - يتضح من خلال الرجوع إلى كتب التاريخ والحديث ، أن توسط آدم - عليه السلام - بالنبي الأكرم (ص) كان موضوعاً معروفاً ومشهوراً ، لأنه سبق وأن قرأنا في (بحث التوسل في الأحداث التاريخية) ، أن الإمام مالك قال في حرم النبي (ص) إلى « منصور الدوانيقي » ما يلي :

« هُوَ وَسَيْلَتَكَ وَوَسِيلَةَ أُنَيْكَ آدَمَ » ^(٣) .

(١) « مجمع البيان » ، المجلد الأول ، الصفحة ٨٩ ، طبعة صيدا ، - تفسير البرهان » ، المجلد الأول ، الصفحات ٨٦-٨٨ ، الأحاديث ١٧،١٤،١٢،١١،٦،٥،٢ .

(٢) « تفسير البرهان » ، المجلد ١ ، الصفحة ٨٧ ، الأحاديث ١٣،١٥،١٦ .

(٣) الرجوع إلى الصفحة ٧٥ من نفس القسم . أن مؤلف « التوصل » يحاول أن يعتبر موضوع مذاكرة أبو جعفر المنصور مع مالك غير صحيحاً ، في حين أن الحقيقة هي

لقد نظّم الشعراء الإسلاميون هذه الحقيقة ، قائلين :

« بِهِ قَدْ أَجَابَ اللَّهُ آدَمَ إِذَا دُعَا
وَنَجَّى فِي بَطْنِ السَّفِينَةِ نُوحَ
قَوْمُ بِهِمْ غُفِرَتْ خَطِيئَةُ آدَمَ
وَهُمُ الْوَسِيلَةُ وَالنَّجْمُ الطُّلَعُ »^(١)

الإجابة على مجموعة من الأسئلة :

إن هذه الرواية لم تعجب مؤلف كتاب « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، وأراد أن ينتقدها بسلسلة من الأحكام المسبقة أو الإشكالات الصبغانية .

= عكس ذلك . يكتب السيد أحمد بن زيني دحلان في كتاب « الدرر السنية » الصفحة ١٠ حول ذلك ، كما يلي : لقد نقل ذلك القاضي عياض بسند صحيح ، ونقله الإمام السبكي (علي تقي الدين) في كتاب « شفاء السقام في زيارة الأنام » ، والسيد السمهودي في « خلاصة الوفاء » والعلامة القسطلاني في « المواهب اللدنية » ، وابن حجر في « الجواهر المنظم » ، والكثير من كتّاب المناسك . يقول ابن حجر في « الجواهر المنظم » : لقد نقلت هذه الرواية بسند صحيح ، ويكتب العلامة الزرقاني في شرح « المواهب » : لقد نقل ذلك ابن فهد بسند جيد ، ونقلها القاضي عياض بسند صحيح .

(١) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٣٠٧ و ٣٠٨ .

وإليكم دراسة هذه الأسئلة^(١) الإشكال الأول :

إن الحلف المذكور بالمخلوق في هذا الحديث ، والحلف على المخلوق هما شرك وحرام .

الإجابة :

ليس هذا الإشكال سوى حكم مسبق ، وسوف نتحدث عن ذلك في الفصل الرابع من هذا الكتاب ، فإن سنة المسلمين ، وسيرتهم هي دعامة لجواز حلف كهذا ، رغم أنه يجب في « فض الخصومة » الحلف بالله سبحانه وتعالى فقط . . أن ما يثير الإهتمام هو الاستدلال الذي يمتلكونه بصدد هذه المواضع ، ويقولون :

« فَإِنَّا جَعَلْنَا الْمَخْلُوقَ بِمَرْتَبَةِ الْخَالِقِ ، وَالْخَالِقَ بِمَرْتَبَةِ الْمَخْلُوقِ ، لِأَنَّ الْمُحْلُوفَ بِهِ أَعْظَمُ مِنَ الْمُحْلُوفِ عَلَيْهِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْحَلْفُ بِالشَّيْءِ دَلِيلًا عَلَى عَظَمَتِهِ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ شَيْءٍ عِنْدَ الْمُحْلُوفِ عَلَيْهِ » .

إننا نعتقد أن الإجابة على هذا الاستدلال لا تحتاج إلى تبيان أكثر . وأن أساس غلطته موجود في هذه الجملة ، حيث يقول :

« لِأَنَّ الْمُحْلُوفَ بِهِ أَعْظَمُ مِنَ الْمُحْلُوفِ عَلَيْهِ »^(٢) .

(١) لقد وردت مجموعة هذه الاعتراضات في كتاب « التوصل إلى حقيقة التوصل » الصفحات ٢١٥ - ٢٢٢ .

(٢) أن المقصود من « المحلوف عليه » هو الشخص الذي يحلف عليه ، ولأنه في =

لأنه ليس لقاعدة كهذه شمولية ، وهو ليس كذلك أن يكون
« المحلوف به » أبداً أعظم من « المحلوف عليه » ، بل أن اليمين
والحلف علامة على أن « المحلوف به » كان معزلاً ومؤقراً عند
« المحلوف عليه » وذو عظمة ، وليس أنه أعز وأعظم من « المحلوف
عليه » .

ففي القرآن الكريم ، بالمناسبة توجد أحلاف ليس فيها
« المحلوف به » أبداً أعظم من « المحلوف عليه » ، كالأيات ١ - ٤
من « سورة القلم » المباركة :

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ
لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

لقد استحلف في هذه الآيات البيئات ، بالقلم وبالذي يُكتب
به ، وبالأخرى يكون القلم والمكتوبات هي « المحلوف به » ، وأن
شخص النبي الأكرم (ص) هو « المحلوف عليه » . فهل أن
« المحلوف به » أعظم من « المحلوف عليه » ؟ لهذا فإن جملته الثانية
هي صحيحة ، حيث أنه يكتب :

« وَإِنَّهُ أَعْظَمُ شَيْءٍ عِنْدَ الْمُحْلُوفِ عَلَيْهِ » .

= الدعاوى وفض النزاع يكون الحلف مُضراً له ، فلهذا تستخدم لفظة « عليه » التي
تدل على الضرر ، بيد أنه في غير حالة النزاع ، فإن المقصود من ذلك الموضوع هو
شخص يتم الحلف من أجله ، حتى وإن لم يكن مُضراً ، فكيف الحال القصد هو
إبداء المحبوبة والرغبة .

الإشكال الثاني :

لقد علّم الله سبحانه وتعالى ، آدم قبل أن يعصي أوامر الله ،
علّمه الأسماء كلّها ، كما يقول :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... ﴾^(١) .

وعلى هذا ، فقد تعرّف هو في هذه الأثناء على إسم
محمد (ص) وخصاله الأخرى . ففي هذه الحالة ، وكأن الله عزّ وجل
يسأل ، كيف عرفت محمد ؟ الأجدر به أن يقول : لدى تعليم
الأسماء . وليس أن يقول : عندما خلقتني ، وجدت أسمه على
عرشي ...

الإجابة :

لا ريب في أن الله تعالى علّم آدم الأسماء بعد أن خلقه ، بيد أن
شكل تعليم ذلك لم يرد في القرآن . فيمكن في هذه الحالة أن يكون
هذا الخبر وأخبار أخرى تبياناً لشكل تعليم الأسماء ، ولا مانع من أن
تكون طريقة التعرف على إسم محمد (ص) وهو أنه رسول الله ، بنفس
الشكل الذي ورد في هذا الحديث .

فإن لم يقل آدم (عليه السلام) في جوابه لله سبحانه ، ما يلي :
(لَمَّا عَلَّمْتَنِي مِنَ الْأَسْمَاءِ) ، فهو بسبب أنه أراد أن يبين علمه بشكل
مسهب . فحقاً ، أليس هذا الإنتقاد صبيانياً ؟

(١) سورة البقرة : الآية ٣١ .

ناهيك عن ذلك ، من الممكن أن يكون علم « آدم » - عليه السلام - بإسم « النبي الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم - ورسالته ، قد تحقق بصورتين اثنتين :

١ - حينما خلق آدم (ع) ، فرأى بعد خلقته صفحة العرش ، وتعرّف بالتفصيل على هذا الإسم ورسالته .

٢ - لقد تعرّف على هذا الإسم مرة أخرى حين تعليم الأسماء كلها .

الإشكال الثالث :

لقد ورد في الحديث ، أن :

« لَوْلَا مُحَمَّدٌ لَّمَّا خَلَقْتُكَ » .

أما هذه العبارة ، فهي تعرّفنا بالآية الشريفة :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١) .

وكذلك تنافي الآية الشريفة أدناه ، التي تعتبر أن الهدف من الخلقة هو إحاطة الإنسان علماً بقدرة الله سبحانه وتعالى ، كما يقول :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾^(٢) .

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٢) سورة الطلاق : الآية ١٢ .

وعلى هذا ، فإن كان الهدف من خلق آدم - عليه السلام - ، هو وجود « النبي محمد » - صلى الله عليه وآله سلم - ، فلماذا إذن اعتبر الهدف من الخلقة في الآيات السالفات الذكر ، هو عبادة الناس وتوعيتهم ؟

الإجابة :

إن هذا النوع من الإستشكالات هو عدم سبر المستشكل في المعارف العقلية للإسلام ، لأنه تصور أن عبادة الله تعالى ، هو الهدف النهائي من الخلقة ، في حين أن العبادة هي من أجل تكامل الإنسان وهدفاً لإيجاد إنسان يتمكن من حيث الكمالات الروحية والمعنوية ، أن يكون خليفة الله على وجه البسيطة ، والإنسان الوحيد على وجه الأرض الذي يكون خليفة الله . هو الذي يستطيع بشؤون وجوده أن يحكي عن كمالات ذلك الذي هو خليفة له ، وأن الإنسان المنزه عن الكمال ليس الخليفة الواقعي ، بل له نوع من الشبابة بالخليفة الإلهي .

وعلى هذا ، فإن الهدف من خلق نوع الإنسان ، هو تربية الإنسان الكامل ، وخليفة الله على وجه الأرض ، ويتحقق هدف كهذا في ضوء العبادة ، والعبادة الواعية ، والقيام بوظائف العبودية ، وإن عبادة الله سبحانه وتعالى هو طريق ووسيلة للوصول إلى هدف نهائي كهذا .

انطلاقاً من هذا ، فإن عبادة الله سبحانه وتعالى من حيث العبودية ، والفضائل الأخلاقية والكمالات الإنسانية ، لهم مراتب

مختلفة ومتنوعة . فإن الهدف النهائي من الخلق سوف يكون بالتأكيد إنساناً ذو كمال معنوي أكثر ، وبالأحرى أكثر الناس كمالاً وأسماهم . وأما الإناس الآخرون ، فلن يكونوا من حيث الكمال والفضيلة بهذه الدرجة والمرتبة ، رغم أنهم أهداف متوسطة ، بيد أنهم لم يكونوا هدفاً نهائياً ، بل أنهم وقعوا في مسير هذا الهدف ، وأن الشيء الذي يقع في مسير الهدف النهائي ، ولا يكون الهدف النهائي ، سيكون فاعلاً بالشكل المغلوب والمراد قريناً للهدف النهائي . ولن يكون بعكس ذلك مطلوباً ، ولن يصبح موضع إرادة الفاعل .

وبعبارة أخرى : إن الهدف من خلقه الإنسان ليس وفقاً على تربية الإنسان « أكمل من جميع الجهات » ، بل أن الإناس الآخرين الذين يتحلون بالكمال الإنساني قليلاً أم كثيراً ، يكونون ضمن الهدف من الخليفة . بيد أن هذه الكمالات النسبية يضمنون الهدف في حالة أن يكونوا ملحقين بالهدف النهائي ، وبالعكس هذه الحالة ، لن تكون الكمالات المتوسطة محرّكاً للفاعل من أجل القيام بالعمل . كالأستاذ الذي يقوم بالتدريس في إحدى الصفوف ، والذي له خمسة طلاب من المتفوقين ، وعشرون طالب متوسط ، فهو يريد أن يوصل الجميع إلى الكمال اللائق ، بيد أنه لو لم يكن في الصف خمسة من الطلبة المتفوقين ، فلن يكن يؤهله لتدريس عشرين طالباً آخر .

وبكلام آخر ، فإن الهدف من الحصول على شهادة الصف الأول ، هو الوصول إلى الصف الثاني ، في حين أن الوصول إلى الصف الثاني ليس الهدف النهائي ، بل أنه في سياق الهدف النهائي ، الذي يكمن في الحصول على شهادة علمية عالية تؤهله للعمل في

إحدى الدوائر . صحيح أن « النبي آدم » - عليه السلام - كان « خليفة الله » على وجه الأرض ، وكان له نصيب وافر من الكمالات الإنسانية ، بيد أنه لم يكن الأفضل أبداً ، بل أنه كان في سياق خلقه الأناس الأفضل ، الذين ظهروا من نسله هو ، وإن هؤلاء الإناس الأفضل يشكلون الهدف النهائي من خلقه الناس ، وإن لم يكونوا هذه النماذج الراقية ، فلم يصبح الإناس الذين يقعون في سياق الهدف النهائي ، موضع الخليفة . وصحيح من هذه الجهة أن يقال :
« يا آدم ، لولا مُحَمَّدٌ لما خَلَقْتُكَ » .

وإلى هنا اتضح مفاد الآية الشريفة :
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(١) .

أما الآية ١٢ من سورة الطلاق ، فإن ملخص الحديث حولها هو أن علمنا بصفات الله عز وجل ، ومن ضمنها علمنا بقدرة الحق الذي تحكي عنه العبارة التالية : ﴿ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . يؤدي إلى كمالنا ، وإن هذا الكمال هو نفسه الذي تحدثنا عنه في السابق : الهدف من خلقه الإنسان هو تربية الإنسان الكامل . ولهذا ، تستطيع هذه الآية الشريفة أن تكون برهاناً على صدق كلامنا .

فضلاً عن ذلك ، فهناك رأي آخر حول الآية الشريفة ، وهو أن علمنا هو بقدرة الله سبحانه وتعالى ، والهدف ومنتهى الخلقة إليه . وليس الهدف من ذلك والفرق بين هذين الإثنين (المنتهى إليه والهدف) واضحاً . وأحياناً تترتب على حركة وعمل نتيجة ، في حين يكون الهدف غير ذلك . مثلاً يقول « القرآن الكريم » :

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾^(١) .

ومن المسلم به ، أن اقتياد الناس إلى جهنم ، كان النتيجة الجبرية للخلقة ، وليس أن الله سبحانه خلق هؤلاء من أجل هذا الهدف ، يعني أن خلقة الله تعالى وصلت إلى هذه النتيجة ، بسبب عدم انصياع الإنسان لأوامر الله ، وليس أن الهدف كان منذ اليوم الأول من الخليقة ، هو سوق هؤلاء إلى جهنم .

ويمكن إبراز هذا الرأي نفسه بصدد الآية ١٢ من « سورة الطلاق » ، يعني أن الله سبحانه وتعالى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بَيْنَهُنَّ ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير .

الإشكال الرابع :

يوجد في سند هذا الحديث ، « عبد الرحمان بن زيد الخطاب » ، وهو في سلك « الرواة ضعيف » ، رغم أن الحاكم في مستدركه ، اعتبر هذا الحديث صحيحاً ، ولكنه وصف عبد الرحمان في كتاب آخر له بالضعيف .

الإجابة :

لقد كتب « ابن حجر العسقلاني » المتوفي سنة ٨٥٢ ، شرحاً حوله في كتاب « تهذيب التهذيب »^(٢) ، ولا يشير أبداً إلى ضعفه ، أو

(١) سورة الأعراف : الآية ١٧٩ .

(٢) « تهذيب التهذيب » المجلد ٦ ، الصفحة ١٧١ .

إلى كونه ثقة ، ويقول : عندما ولد عبد الرحمان ، لُقِّبَ « أبو لبابة »
جده عن أمه ، بألياف النخيل وأحضره عند النبي الأكرم - صَلَّى الله
عليه وآله وسلم - ، فوضع النبي يده على رأس الطفل ودعا له .

يكتب « أبو عبد الله محمد بن عثمان » المعروف بـ « الذهبي »
المتوفي سنة ٧٤٨ ، في كتاب « ميزان الاعتدال في نقد الرجال »^(١) ،
يكتب حوله ما يلي :

« لقد أضعفه يحيى بن معين والدارمي والبخاري والنسائي ، بيد
أن أحمد بن حنبل وثَّقه ، واحتج الشافعي على حديثه » .

وعلى هذا ، فإن كون عبد الرحمان ضعيفاً ، ليست مسألة
صدقة ، بل إنه كجماعة ، يكون موضع اختلاف . فكلما نقلت
أحاديث من الشيعة بهذا الصدد ، تلحق بحديثه ، ويمكن الإذعان
على صحة ذلك .

لنفرض أنه كان ضعيفاً مائة في المائة ، ولا يمكن الاحتجاج
بروايته أبداً ، بيد أنه روح الكلام يكمن في أنه إذا كان التوسل
بالأشخاص المحترمين ، شركاً ، بشكل أنه يتوجب على مقترف ذلك
التوبة ، وإن لم يُتَّبَ يضرب عنقه في ساحة الرياض ، وفي مسعى مكة
المكرمة ، فلماذا إذن تغافل محدثون أمثال الحكم وأبو نعيم البيهقي .
والسيوطي و . . . تغافلوا هذه النقطة ، ولم يعرفوا الإهتمام لذلك ؟ ! :

ألا تدعو الفئة الوهابية ، المسلمون في العالم إلى اقتفاء طريق

(١) « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٥٦٤ .

ونهج السلف الصالح ؟ وأليس مؤلف كتاب « التوصل » مؤسس « الدعوة السلفية » ؟ فلماذا إذن نقل السلف الصالح هذا الحديث وأمثاله بلا تحفظ ، ولم يخطر ببالهم أبداً موضوع الشرك ؟

لنفرض أن عبد الرحمان ، ابن أخ الخليفة الثاني اختلق ووضع حديثاً كهذا عمداً ، فهل يسمح مختلق الحديث ، وهو من آل الخلافة ، لنفسه أن يختلق حديثاً لا يتقبله الناس ؟ بلا شك ، كلا . إن الكذاب الذي يريد أن يتناقل كلامه في المجالس ، وتتناقله الألسن ، يصنع كذباً غريباً ، يجعل الناس يتنافرون منه .

وباختصار عندما يلحق هذا الحديث بأحاديث التوسل الأخرى ، والتي يفوق عددها على الثلاثين ، وأن يؤخذ بنظر الإعتبار إقبال المحدثين والمفسرين في نقلها ، فيمكن للإنسان أن يقول بشكل جازم ، أن مضامينها لم تكن مخالفة لأصول التوحيد ، وأن التوسل بالذوات والشخصيات الفاضلة على عكس مبالغة الوهابيين في الكلام ، لا إرتباط له بالشرك .

لقد تجاوزت الروايات التي وردت في هذا المجال ، حد التوتر ، ولا يمكن أن يصيب ضعف سندها لدى الإحتجاج بها بأذى .

يحاول السيد « محمد نسيب الرفاعي » كثيراً في كتاب « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، لأن يجعلها مرفوضة من حيث السند ، بيد أنه أغفل نقطة واحدة ، وهي أن هذا العدد الكبير من الروايات والتي تبحث كلها عن هدف واحد ، وهي بالأحرى المتواترات المعنوية ، لا يمكن رفض البعض منها كونها ضعيفة من حيث السند ، ولا يمكن أبداً أن يكون ضعف سند الأخبار المتواترة مانعاً عن الإحتجاج .

ناهيك عن هذا ، فإن هذه المجاميع الكثيرة من الروايات الواردة في الصحاح ومسانيد أهل السُّنة ، تدل تلقائياً على أنه لم يكن لمسألة التوسل صلة بمسألة الشرك والتوحيد في ذهن المسلمين في صدر الإسلام ، وإنهم كانوا يفهمون من التوحيد معنىً ، كان منسجماً تماماً بهذه التوسلات ، وإن كان منظور السلف الصالح هو الحجة ، فلماذا إذن أبدى عصيانه في هذا المجال ، عن طريق ونهج السلف الصالح ، واقتضى طريق ونهج ابن تيمية اللذان هما موضع تكفير علماء عصره ؟

الإشكال الخامس :

قال بعض المفسرين أن المقصود من الكلمات في الآية موضع البحث ، هو مضمون الآية ٢٣ من « سورة الأعراف » ، وهنا حيث يقول :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ .

الإجابة :

أولاً : يتضح من خلال ملاحظة آيات سورة البقرة المباركة ، حيث وردت فيها عبارة « تلقى كلمات » ، وآيات سورة الأعراف التي جاء فيها عبارة ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا ﴾ ، يتضح أن المقصود من الكلمات في سورة البقرة ، ليس آية ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا . . . ﴾ ، لأن ترتيب الآيات في سورة البقرة ، هو كالتالي :

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ . . . وَقَلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ . . . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ . . . ﴿١﴾ .

فكما تلاحظون في هذه السورة المباركة ، أنه بعد زَلَّةِ آدَمَ ، طرح موضوع هبوط آدم ، ومن ثم مسألة تلقي الكلمات . في حين أنه وردت في سورة الأعراف ، الآية ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ ، قبل مسألة الهبوط . فإذا كان المقصود من تلقي الكلمات نفس آية ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ ، لكان من الأجدر أن تكون هذه الآية قرينة لإيات سورة البقرة ، بعد الهبوط ، في حين أنها وردت قبل الهبوط .

لقد اتضح من هذا العرض ، أن الهدف من آية ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ ، هو نوع من التذلل والخضوع والتواضع أمام الله سبحانه وتعالى ، ولقد تَمَّت التوبة في غير هذه العبارات .

ثانياً : لا عائق أبداً من أنه كان التوسل بالنبى الأكرم (ص) ، والآية الشريفة ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ كليهما ضمن توبة آدم ، وأن يكون آدم - عليه السلام - مستغفراً بمجموعها .

وعلى هذا يمكن مقارنة العديد من الروايات التي تبين شكل توبة آدم - عليه السلام - مقارنتها مع الأخرى . لقد نقل « السيوطي » في كتابه « الدر المنثور » كيفية توبة آدم (ع) ، بأشكال مختلفة ، نشير بدورنا إلى مستهل كل منها :

أ - أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ ؟ قَالَ بلى . . .

ب - اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي . . .

ج - اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ . . . (١) .

(١) « الدر المنثور » ، المجلد ١ ، الصفحة ٥٩ .

كما أن المرحوم السيد هاشم البحراني ، المتوفي في عام ١١٠٧ ، نقل في « تفسير البرهان » ، طريقة توبة آدم - عليه السلام - بصور مختلفة . يمكن للراغبين الرجوع إلى « تفسير البرهان »^(١) .

إن طريقة جمع ذلك ، أن هذه الأحاديث إما وردت على أساس « نقل المعنى » ، أو أن محصلتها تشكّل طريقة توبة آدم عليه السلام - . ولا مانع من أن يكون كل ذلك ضمن توبة آدم ، ولا تكون « مانعة الجمع » أبداً .

الحديث الرابع :

توسل النبي الأكرم (ص) بالأنبياء السابقين :

« لَمَّا مَاتَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ ، دَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ (ص) فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهَا ، فَقَالَ رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أُمِّي بَعْدَ أُمِّي ، ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ (ص) أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ، وَأَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ وَعُمَرَ بْنَ الْخَطَّابَ وَغُلَامًا أَسْوَدَ ، يَحْفَرُونَ ، فَحَفَرُوا قَبْرَهَا ، فَلَمَّا بَلَغُوا اللَّحْدَ ، حَفَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِيَدِهِ وَأَخْرَجَ تُرَابَهُ ، فَلَمَّا فَرِغَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) فَاضْطَجَعَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، إِغْفِرْ لَأُمِّي فَاطِمَةَ بِنْتُ أَسَدٍ وَوَسَّعْ عَلَيْهَا مَدْخَلَهَا بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِي » .

يقول مؤلف « خلاصة الكلام » :

(١) « تفسير البرهان » ، المجلد الأول ، الصفحة ٨٦ - ٨٩ .

« رواه الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ وَابْنُ حَبَّانٍ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحُوهُ »^(١) .

يقول « السمهودي » في « وفاء الوفا » :

« وفي الكبير والأوسط بسند فيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح »^(٢) .

يقول السيد أحمد زيني دحلان ، في كتاب « الدرر السنية في الرد على الوهابية » ما يلي :

« رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ جَابِرٍ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَكَذَا رَوَى مِثْلَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَرَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحُلِيِّ الْأَوَّلِيَاءِ عَنْ أَنَسٍ ، ذَكَرَ ذَلِكَ كُلُّهُ الْحَافِظُ جَلَالُ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ فِي الْجَامِعِ الْكَبِيرِ »^(٣) .

لقد نقل هذا الحديث في الكتب التالية وبأشكال مختلفة ، حيث يشتمل البعض منها على الدعاء موضع البحث ، ولا يشتمل القسم الآخر عليه . والآن نحيطكم علماً بنتيجة مراجعتي للمصادر :

« ١ - « ابن عبد البر » المتوفي في سنة ٤٦٣ ، ينقل في كتاب « الاستيعاب » « الذي طبع على هامش الإصابة » ، ما يلي :

لَمَّا مَاتَتْ فَاطِمَةُ أُمُّ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، أَلْبَسَهَا رَسُولُ اللَّهِ (ص) قَمِيصَهُ وَاضْطَجَعَ بِهَا فِي قَبْرِهَا فَقَالُوا مَا رَأَيْنَاكَ صَنَعْتَ مَا صَنَعْتَ

(١) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٣١٢ ، نقلاً عن « خلاصة الكلام » ،

(٢) « وفاء الوفا » ، المجلد ٣ ، الصفحة ٨٨٩ ، قسم « القبور الموجودة في البقيع » .

(٣) « الدرر السنية في الرد على الوهابية » ، الصفحة ٨ .

بهذه ، فقال إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها إنما ألبستها قميصي لتكس من حُللِ الجنة واضطجعت معها ليهُونَ عليها» (١) .

٢ - ينقل « الحاكم » في كتابه « المستدرک » نص الحديث وبالشكل التالي :

« لَمَّا مَاتَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ ، كَفَّنَهَا رَسُولُ اللَّهِ (ص) فِي قَمِيصِهِ وَصَلَّى عَلَيْهَا وَكَبَّرَ عَلَيْهَا سَبْعِينَ تَكْبِيرَةً ، وَنَزَلَ فِي قَبْرِهَا فَجَعَلَ يَوْمِي مِنْ نَوَاحِي الْقَبْرِ ، كَأَنَّهُ يَوْسَعُهُ وَيُسَوِّي عَلَيْهَا وَخَرَجَ مِنْ قَبْرِهَا وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ » (٢) .

٣- يكتب « المرحوم الكليني » المتوفي سنة ٣٢٩ في كتاب « الكافي » ، في « باب مولد أمير المؤمنين » - عليه السلام - ، ما يلي :

« . . . وَدَخَلَ الْقَبْرَ فَاضْطَجَعَ فِيهِ ثُمَّ قَامَ فَأَخَذَهَا عَلَى يَدَيْهِ حَتَّى وَضَعَهَا فِي الْقَبْرِ ثُمَّ انْكَبَّ عَلَيْهَا طَوِيلًا يُنَاجِيهَا وَيَقُولُ لَهَا : ابْنُكَ ، ثُمَّ خَرَجَ وَسَوَّى عَلَيْهَا التُّرَابَ . . . وَإِنِّي ذَكَرْتُ الْقِيَامَةَ وَأَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ عُرَاءً ، فَقَالَتْ : وَاسْوَأَتَاهُ ، فَضَمِنْتُ لَهَا أَنْ يَبْعَثَهَا اللَّهُ كَاسِيَةً فَذَكَرْتُ ضَغْطَةَ الْقَبْرِ ، فَقَالَتْ : وَاضْغَعَاهُ فَضَمِنْتُ لَهَا أَنْ يَكْفِيَهَا اللَّهُ ذَلِكَ ، فَكَفَّيْتُهَا بِقَمِيصِي وَاضْطَجَعْتُ فِي قَبْرِهَا لِذَلِكَ وَانْكَبَيْتُ فَلَقَّنْتُهَا مَا تُسْئَلُ عَنْهُ ، فَإِنَّهَا سُئِلَتْ عَنْ رَبِّهَا فَقَالَتْ ، وَسُئِلَتْ عَنْ رَسُولِهَا فَأَجَابَتْ ، وَسُئِلَتْ عَنْ وَلِيِّهَا وَإِمَامِهَا فَارْتَجَّ عَلَيْهَا ، فَقُلْتُ إِنَّكَ

(١) «الإستيعاب» ، المجلد ٤ ، الصفحة ٣٨٢ .

(٢) « المستدرک » ، المجلد ٣ ، الصفحة ١٠٨ .

إِبْنُكَ . . . »^(١) .

صحيح أنه ليس في هذه الأسانيد الثلاثة (الإصابة ،
والمستدرک ، والكافي) أثر من الدعاء موضوع البحث ، بيد أن أهل
الإدراك والكمال والقلوب اليقظة والعليمة يستطيعون الإستفادة من
مضامينها في موضوع أسمى ، حيث أن جثمان النبي الأكرم - صلى الله
عليه وآله وسلم - مؤثر إلى حد أنه يستطيع أن يخرج الميت من مخالب
القبر ، وقميص النبي محترم إلى درجة أنه يتبدل يوم القيامة إلى ملابس
الجنة الفاخرة . (تحكي رواية الكافي على أن المذاكرة بأرواح
الأموات من هذا العالم ممكنة التحقيق) .

٤ - لقد شاهد المحرر ، هذا الحديث بالشكل الذي طرح في
مستهل البحث ، قد انعكس في اسانيد اثنين ، كما يلي :

أ - « حلية الأولياء » ، لـ « أبا نعيم الأصفهاني »^(٢) .

ب - « وفاء الوفاء » ، لـ « السمهودي »^(٣) . فهو يكتب :

« في الكبير والأوسط ، بسند فيه رُوحُ بن صلاحٍ وثقه ابنُ حبانٍ
والحاكمُ وفيه ضعفٌ و . . . » .

ومختصر القول هو أن الحديث موضع البحث موجود في
الأوساط الحديثية ، والرواة جميعهم ثقة ، وأن الرواي الوحيد موضع

(١) « أصول الكافي » ، كتاب الحجة ، باب مولد أمير المؤمنين (المجلد الأول ،
الصفحة ٤٥٣) .

(٢) « حلية الأولياء » ، المجلد الثالث ، الصفحة ١٢١ .

(٣) « وفاء الوفاء » ، المجلد الثالث ، الصفحة ٨٩٩ ، قسم قبور البقيع .

البحث هو «روح بن صلاح» ، وإننا ننقل وجهة نظر الرجالي المعروف لأهل السنة ، حول ذلك :

« رُوحُ بَنِ صَلَاحِ الْمَصْرِيِّ ، ضَعَّفَهُ ابْنُ عَدِيٍّ وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ وَقَالَ الْحَاكِمُ ثِقَةً مَأْمُونٌ ، مَاتَ سَنَةَ ٢٣٣ هـ ^(١) .

إستناداً إلى أن هذا الحديث قد نقل في أوساط السنة والشيعة ، فليس اختلاف المضمون من حيث جملة واحدة أو جملتين مضراً ، وإذا كان روح بن صلاح شخصاً جرى تضعيفه ، واعتبره شخصان آخران ثقة ، وإذا أصبح هذا الحديث الذي ورد في أكثر من عشرين حديثاً في هذا المجال ، أصبح ملحقاً ، فالموضوع سوف يظهر بصورة التواتر المعنوي ، ولن يكن من حاجة إلى ملاحظة أسانيد الروايات .

الحديث الخامس :

لقد نقلت مجموعة من المحدثين الإسلاميين ، أنه دخل إعرابي من البادية ، على النبي الأكرم (ص) ، وبدأ بالحديث ، قائلاً :
« لَقَدْ آتَيْنَاكَ وَمَا لَنَا بَعِيرٌ يَغِيظُ ^(٢) لَنَا وَلَا صَبِيٌّ يَغِيظُ ^(٣) » .

ثم أنشد هذه الأشعار :

آتَيْنَاكَ وَالْعَذْرَاءُ تَدْمِي لَبَانُهَا
وَقَدْ شَغَلَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَنِ الطُّفْلِ

(١) « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » لـ « الذهبي » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٥٨ .

(٢) يَغِيظُ : مشتق من « أطيط » ، وتعني صوت البعير .

(٣) يَغِيظُ : تتأتى من « غطيط » ، وتعني صوت الطفل الذي ينام .

وَلَا شَيْءَ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ عِنْدَنَا
سِوَى الْخَنْظَلِ الْغَامِي وَالْعِلْهَزِ الْفَسَلِ
وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَيْكَ فِرَارُنَا
وَأَيْنَ فِرَارُ النَّاسِ إِلَّا إِلَى الرَّسُلِ »

ثم :

« فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ يَجْرُ رِدَاءَهُ حَتَّى صَعِدَ الْمَنْبِرَ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ :
اللَّهُمَّ اسْقِنَا غِيثًا مُغِيثًا . . . فَمَا رَدَّ النَّبِيُّ يَدَيْهِ حَتَّى أَلْقَتْ السَّمَاءُ . . .
ثُمَّ قَالَ اللَّهُ دَرُّ أَبِي طَالِبٍ لَوْ كَانَ حَيًّا لَقَرَّتْ عَيْنَاهُ ، مَنْ يَنْشِدُنَا قَوْلَهُ :
فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَالَ وَكَأَنَّكَ تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْلَهُ :

وَأَبْيَضُ يَسْتَسْقِي الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ
ثِمَالِ الْيَتَامَى ، عَصْمَةَ لِلْأَرَامِلِ
يَطُوفُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ

فَقَالَ « النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ » - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - :

« أَجَلٌ ، فَأَنْشَدَهُ آيَاتًا مِنَ الْقَصِيدَةِ وَالرَّسُولُ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِي طَالِبٍ
عَلَى الْمَنْبِرِ ، ثُمَّ قَالَ رَجُلٌ مِنْ كِنَانَةَ وَأَنْشَدَ :

«لَكَ الْحَمْدُ وَالْحَمْدُ مِنِّي
شَكَرَ ، سَقَيْنَا بِوَجْهِ النَّبِيِّ الْمَطَرَ» (١)

(١) لقد استفاد المؤلف من ضمن الأسانيد الكثيرة التي نُقلت لهذا القسم ، استفاد من
الأسانيد التالية :

متى كان استسقاء علي بن أبي طالب ؟
يكتب « ابن عساكر » في تأريخه :

« التجأ أهل قریش إلى أبي طالب ، وقالوا : لقد خيم القحط
على أراضينا ، وسلط الجوع على أبنائنا ، فتعال واطلب المطر ؟ » .
« فخرج أبو طالب لطلب المطر ، وأخذ معه غلاماً يسطع وجهه
كالقمر ، . . . » .
« فأخذه أبو طالب وألصق ظهره بالكعبة ولاذ بإصبعه الغلام وما
في السماء قزعة ، فأقبل السحاب ومن ها هنا وها هنا . . . » ^(١) .

= أ- « عمدة القارىء في شرح حديث البخاري » ، المجلد ٧ ، الصفحة ٣١ ، المحرر
« بدر الدين محمود بن أحمد العين » ، المتوفي سنة ٨٥٥ ، طبعة دار الطباعة
المنيرية .

ب- « شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة » ، المجلد ١٤ ، الصفحة ٨٠ .
ج- « الحجّة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب » ، تأليف شمس الدين أبي علي
الفخارين ، المتوفي سنة ٦٣٠ ، طبعة النجف ، مطبعة العلوي ، الصفحة ٧٩ .
هـ- « سيرة زيني دحلان » على هامش سيرة الحلبي ، المجلد الأول .
(١) لقد كتب هذه القطعة التاريخية العديد من المحدثين والمؤرخين ، ونشير بدورنا إلى
البعض منهم :

أ- « المواهب اللدنية بالمنح المحمدية » ، تأليف أحمد بن أبي بكر الخطيب
القسطلاني ، طبعة دار الكتب العلمية .
ب- « إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري » ، تأليف شهاب الدين ، أحمد بن
محمد القسطلاني ، المتوفي سنة ٩٢٣ ، طبعة دار صادر ، أوفست ، المجلد
الثاني ، الصفحة ٢٣٨ .

ج- « سيرة الحلبي » ، المجلد ١ ، الصفحة ١٣٨ .
د- « سيرة زيني دحلان على هامش سيرة الحلبي » ، المجلد الأول ، الصفحة ٨١ .

استسقاء عبد المطلب :

ينقل «الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم ، أبو الفتح)» في كتابه «الملل والنحل» : أنه كان على علمٍ بمقام الرسالة وشرف نبوة ولده ، لأنه خيمَ القحط على مكة لمدة عامين ، فقال هو لأبي طالب : أن يأتي بطفله الرضيع « مصطفى » . ثم وقف قبالة الكعبة ، حاملاً بيديه طفله الرضيع . رافعاً إياه إلى السماء ، وقال :

« يَا رَبِّ ، بِحَقِّ هَذَا الْغُلَامِ ، إِسْقِنَا غَيْشاً مُغِيثاً دَائِماً هَاطِلاً ... » (١) .

لم يكن عبد المطلب وأبو طالب ، لوحدهما فقط يقومان بالإستسقاء بوسيلة ولديهما ، بل يمكن استنتاج ذلك تماماً من خلال نقل المحدثين أمثال البخاري والبيهقي ، من أن هذا التقليد كان لا يزال عالقاً في أذهان المسلمين ، وكان شعر أبو طالب ، على لسان الصحابة والتابعين .

ينقل « البخاري » (٢) ، عن عبد الله بن دينار : أنني سمعت من ولدي عمر ، أنه كان يتمثل بشعر أبي طالب ، ويقرأه . وهنا حيث يقول :

« وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ
ثَمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ »

(١) « الملل والنحل » للشهرستاني ، هامش قاموس عبد المطلب (الصفحة ٤٣٢ ، من ترجمة أفضل الدين الأصفهاني) .

(٢) « البخاري » ، باب الإستسقاء ، المجلد الثاني ، الصفحة ٢٧ .

وينقل كذلك عن أبي « سالم » ، أنه : عندما كنت أرى النبي الأكرم (ص) على المنبر يطلب المطر للناس ، كان يخطر قول الشاعر ببالي ، وأنا أنظر إلى وجهه ، فلم يكن يترك المنبر إلا عندما ينهمر المطر كالمرزاب^(١) .

ونقل « البيهقي » أيضاً في كتابه^(٢) ، نقل كلا الموضوعين .

دراسة أحاديث الإستسقاء :

يستنتج لنا من خلال ملاحظة هذه الأجواء التاريخية ، المواضيع التالية وبوضوح :

١ - ذهب الإعرابي من شدة العطش والظمأ ، إلى الرسول الأكرم (ص) وأنشد أشعاراً ، لم تكن غايته إلى « الرسول الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم - غير عرض الحاجة ، ولم يكن له بديل غير ذلك .

وإذا اعتلى النبي الأكرم (ص) المنبر بعد حديث ذلك ، وقام بالدعاء وطلب المطر من الله سبحانه وتعالى ، فليس دليلاً على أن الإعرابي كان يطلب من النبي الأكرم (ص) بصدد نفسه . (طلب الدعاء) . لأنه الطريق الذي انتخبه النبي (ص) للوصول إلى غرضه المطلوب ، وليس أنه اقترح على النبي (ص) هذا الطريق ، بل أنه جاء إليه وطلب المطر من النبي (ص) ، ولم تكن لديه وسيلة خاصة ،

(١) المقصود بقول الشاعر ، هو الشعر المذكور آنفاً .

(٢) « السنن الكبرى » ، طبعة الهند ، في المجلد الثالث ، الصفحة ٣٥٢ .

وهذا نفسه دليل على أن هذا النوع من التوسل ، هو جائز أيضاً ، رغم أن توسلاً كهذا يختلف قليلاً بالتوسل موضع البحث ، لأن محل البحث هو أن نجعل من شخصٍ واسطة لنا في عتبة الساحة الإلهية لدى استنجدنا بالله جلّ جلاله ، في حين أن الأعرابي تثبت بالنيبي الأكرم (ص) بدون أن يقوم بالدعاء، وطلب منه النتيجة ، لأنه كان يعلم أن النبي (ص) قادر على القيام بعملٍ كهذا .

أن طلب الإعرابي ، هو تماماً كطلب المعجزة من مدّعي النبوة أن يشفي مريضاً ، ويجعل الأعمى بصيراً ، و . . . كما طلب الإعرابي المطر من النبي الأكرم (ص) .

وبعبارة أخرى : فلم يكن الإعرابي بنظره سوى وسيلة ، ونتيجة ولا غير ، فالوسيلة هي ذات النبي الأكرم (ص) نفسها ، والنتيجة كانت عملية هطول المطر ، ولم يكن الإعرابي أبداً قد تنبأ بأية طريقة سوف يصل النبي إلى هذه النتيجة ، في حين كان يمكن للنبي الأكرم (ص) أن يصل إلى هذه النتيجة عبر الطرق التالية :

أ - أن « النبي الأكرم » - صلوات الله وسلامه عليه - يستطيع بالقدرة الروحية والولاية الإلهية وبإذن الله تعالى أن يتصرف في زاوية من العالم ، وأن يهيم بإرادته المتنفذة ، وسيلة هطول المطر ، وأن تصرف النبي الأكرم (ص) هو كتصرف « آصف برخيا » لدى إحضار عرش بلقيس^(١) ، أو تصرف النبي سليمان - عليه السلام - في تحديد مسير الريح^(٢) ، أو تصرف عيسى المسيح - عليه السلام - في شفائه للعديد من المرضى^(٣) ، كما أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة بإرادتهم

(١، ٢، ٣) إنّ الآيات القرآنية صريحة وواضحة بصدد إمكانية تصرف الإنسان الكامل على =

المتنفذة يتصرفون في زاوية من العالم ، وكان النبي الأكرم (ص) يستطيع أيضاً أن يتصرف في أجواء المدينة وضواحيها ، وأن يهيم لهؤلاء وسيلة لإسقاء فيهم .

ب - أن يُعلم النبي الأكرم (ص) الإعرابي ، كمثل الأعمى ، الدعاء ، وأن يصل الإعرابي إلى هدفه على أثر الدعاء الذي يتعلمه من النبي (ص) .

ج - أن ينهض النبي ، ويرفع يده داعياً إلى الله تعالى ، طالباً منه المطر ، وأن يستجاب دعائه ، وأن يطغي هطول المطر على أرجاء المدينة .

= عالم التكوين . حيث يقول حول « آصف برخيا » ما يلي :

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (سورة النمل ، الآية ٤٠ .

ويقول حول « النبي سليمان » :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ عَاصِفَةٌ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ . (سورة الأنبياء : الآية ٨١) .

ونقرأ بصدق « المسيح » أيضاً ما يلي :

﴿ وَتَبْرَأُ الْأَكْمَةُ وَالْأَبْرَصُ بِإِذْنِي ﴾ . (سورة المائدة : الآية ١١٠) .

إن الآيات المذكورة تعتبر بوضوح أن فاعل هذه الأعمال والقائم بها هم أناس مختارون ، كما يقول :

١- أنا آتِيكَ .

٢- تَجْرِي بِأَمْرِهِ : كانت تجري بأمر سليمان .

٣- تُبْرِئُ : أنت تشفي العميان .

كلنا يعرف طبعاً أن قدرة الإنسان في الحالات الطبيعية والخارقة للعادة ، كانت مستندة على الله تعالى ، ولن يتمكن أي شخص أن يقوم بدون قدرة الله سبحانه ، بأي عمل .

لم يرد الإعرابي ، شيئاً آخر عدا النتيجة ، كان يعتبر سهواً وسيلة العمل . فلم يكن قد عيّن وسيلة للرسول الأكرم (ص) ، وكان يتوسل إلى النبي فقط ، ويريد النتيجة .

يتضح من خلال هذا التبيان : هو أن مؤلف كتاب « التوصل » اتخذ هذا الحديث وثيقة على جواز التوسل بدعاء المؤمن ، وليس هذا إلاً حكماً مسبقاً ، لا غير ، ولا يدل دعاء النبي على أنه كان يطلب الدعاء من النبي الأكرم (ص) ، وإنما كان يطلب النتيجة من النبي ، ولم تكن الوسيلة بالنسبة له ذات أهمية .

ناهيك عن ذلك ، فكيف يمكن أن تكون القصيدة التالية ، مفروضة على طلب الدعاء ؟ . . . كما يقول :

وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَيْكَ فَرَارُنَا وَأَيْنَ فَرَارُ النَّاسِ إِلَّا إِلَى الرُّسُلِ
فكم هي بعيدة عن الذوق حقاً ، أن يحصر الإنسان توسلاً واسعاً وشاملاً كهذا ، أن يحصره بصورة واحدة ، وأن يقول أنه كان على أهبة الإستعداد لأن يطلب الدعاء من النبي الأكرم (ص) بصدد المطر .

والأنكى من هذا ، هو كلام آخر عنه ، يقول فيه :

« وَلَوْ كَانَ الْإِعْرَابِيُّ مُتَوَسِّلاً لِدَاثِهِ لَبَقِيَ فِي مَنْزِلِهِ وَاکْتَفَى أَنْ يَقُولَ
وَهُوَ فِي بَيْتِهِ : اللَّهُمَّ اسْقِنَا الْغَيْثَ بِجَاهِ نَبِيِّكَ . . . » (١) .

إن جواب هذا الاعتراض واضح ، لأنه إذا كان هدف الإعرابي ذلك القسم من التوسل ، الذي يتخذ فيه ، في حالة الطلب من الله

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ٢٩١ .

سبحانه وتعالى ، من النبي الأكرم (ص) وسيلة لنفسه ، لأكتفى أن يجلس في بيته وأن يتوسل بالشكل الذي قيل عنه .

بيد أننا قلنا قبل قليل ، أن توسله ألى النبي (ص) كان بشكل واسع ، وباختصار أنه كان يعرف أن النبي الأكرم (ص) يستطيع وبطرق مختلفة ، أن يلبي طلبه ، ولم يتمكن توسلاً كهذا أن يتحقق إلا بالتشرف بحضور النبي (ص) .

إن إشكال السيد الرفاعي هو على هذا الأساس ، كونه تصوّر أن التوسل إلى الذات ، ليس له أكثر من صورة واحدة ، ولهذا فهو يقول : أن هذا النوع من التوسل كان ممكن التحقيق بجلوسه في منزله والتضرع إلى الله تعالى . ولم يعتقد بعد أن للتوسل بالذات صور أخرى كذلك ، حيث أشير إليها في مستهل البحث ، ولا تتغطى شمولية كهذه إلا بشرف الكسوة .

٢ - وتجلى إلى هنا مفاد حديث الإعرابي ، وبقيت نقطة أخرى في ذلك ، نشير إليها الآن .

صحيح أنه لم يرد في هذا الحديث ، التوسل موضع البحث ، يعني توسل الأولياء بمقام الدعاء ، يعني أن الإعرابي لم يتخذ من النبي الأكرم (ص) في مقام الدعاء والتوسل إلى الله سبحانه ، وسيلة لنفسه ، بيد أن التوسل الذي قام به الإعرابي في محضر النبي ، هو أسمى من التوسل إلى النبي في مقام الدعاء ، ولم يتعرض توسلاً كهذا موضع نهى النبي الأكرم (ص) .

إنه كان يطلب من « النبي الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم -

النتيجة ، وكان يعتبره قادراً ومتمكناً على عمل كهذا ، وإن يكون توسلاً كهذا بلا إشكال في التشريع الإسلامي ، فسيكون التوسل بمقام النبي في مقام طلب الدعاء بلا إشكال أيضاً .

الإجابة على أحد الأسئلة :

لقد نقلنا الحديث عن أسانيد الحديث والتاريخ ، ولم تتمكن الحصول على الأسانيد الأخرى ، ومن أهمها « دلائل النبوة » للبيهقي .

إن مؤلف كتاب « التوصل إلى حقيقة التوسل » يدّعي أن « مسلم الملائي » جاء في سنده ، في الوقت الذي قاموا بإضعافه .

لنفرض أن حضرة السيد الرفاعي ، مؤلف كتاب « التوصل إلى حقيقة التوسل » شاهد الحديث شخصياً في كتاب « دلائل النبوة » ، ولم يكتف بنقل السهمودي في « وفاء الوفا » وغيره ، فيقال جواباً لهذا السؤال :

صحيح أن « الذهبي »^(١) ينقل ضعفه عن فئة ، بيد أن الذهبي نفسه يقول : « أنه هو الذي نقل حديث « الطير المشوي » حول « علي بن أبي طالب » - عليه السلام - ، وكأنه بنقله لهذا الحديث اقترف جريمة كبيرة ، في حين أن حديث « الطير المشوي » هو من الأحاديث الإسلامية المتواترة ، حيث أن المرحوم مير حامد حسين قام بتخصيص مجلد واحد من مجلدات كتاب « العبقات » لذكر

(١) « ميزان الاعتدال » ، المجلد ٤ ، الصفحة ١٠٦ .

أسانيد^(١) ، فلا يستبعد أن تكون ميوله إلى آل الرسالة سبباً لتضعيفه .
ناهيك عن هذا ، فإن المحققين الإسلاميين نقلوا هذا الحديث
أيضاً عن طريق الآخرين ، وأن رواة الحديث في أرجاء الأسانيد ، هم
أفذاذ الحديث والتاريخ .

ينقل المرحوم « شمس الدين أبي علي ، فخار بن معد » ، هذه
القطعة التاريخية وسند معقول في كتابه ، ولا يحتوي سند روايته على
إسم « مسلم الملائي » ، بل أن جميعهم من شيوخ الحديث والأدب
والتاريخ .

وليكم رجال سند الحديث الذي أورده الكاتب المذكور في
كتاب « الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب » ، الصفحة ٨٧ :

« وقرأتُ على شَيْخِنَا عَمِيدِ الرُّسَاءِ ، أَبِي مَنْصُورِ هَبَةِ اللَّهِ بْنِ
حَامِدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ أَيُّوبِ الْكَاتِبِ اللَّغَوِيِّ . قَالَ قرأتُ على الشَّيْخِ أَبِي
الْحَسَنِ ، عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ السُّلَمِيِّ اللَّغَوِيِّ الْبَغْدَادِيِّ ، قَالَ :
أخْبَرَنِي الشَّيْخُ أَبُو مَنْصُورٍ مَوْهُوبُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ الْجَوَالِيقِيِّ
اللَّغَوِيِّ الْبَغْدَادِيِّ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي الشَّيْخُ أَبُو زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ
الْخَطِيبِ تَبْرِيزِيِّ اللَّغَوِيِّ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي الشَّيْخُ أَبُو الْغَنَائِمِ
عَبْدَ اللَّهِ بْنُ رَبِيعِ الرَّقِيِّ ، قَالَ : حَدَّثَنِي الرَّئِيسُ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الْبَنِيِّ ،

(١) إن خلاصة حديث « الطير المشوي » هو : في إحدى الأيام أهدى طير إلى النبي

الأكرم (ص) ، فعندما جهّزه له ، قال النبي :

« اللَّهُمَّ إِنِّي بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إِلَيْكَ يَأْكُلُ مَعِيَ فَجَاءَ عَلِيٌّ » .

يقول المحدثون الإسلاميون ، أن هذه الجملة حول الإمام (ع) وردت من قبل النبي

الأكرم (ص) أكثر من مرة .

قال حدثني أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي ، قال : حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو إِسْحَاقَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِسْحَاقَ ، قال : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أُوَيْسٍ عَنْ هُشَامِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ ، قالت : جَاءَ أَعرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : أَتَيْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَيْسَ لَنَا صَبِيٌّ يَصْطَبِجُ وَلَا بَعِيرٌ يَنْطُ^(١) .

إننا نغض النظر عن كل هذه الأقوال ، ونشير إلى موضوع بيناه بإسهاب آنفاً :

رغم أن روايات التوسل لم ترد بصورة التواتر اللفظي ، بالأحرى لم تنقل حالة واحدة من الحالات السابقة بصورة التواتر ، ولكن لأن الجميع يستهدفون هدفاً واحداً ، فسوف يظهر بالتأكيد التواتر المعنوي ، ولا يستوجب في حالات كهذه العودة إلى سند الرواية .

وأشرف إلى هنا بحثنا حول استسقاء النبي الأكرم (ص) إلى نهايته ، والآن سنتحدث حول استسقاء « أبو طالب » ووالده الفضل « عبد المطلب » - عليهما السلام - .

لا شك في أن عبد المطلب وابنه حسن الأداء ، أبو طالب ، كانا يتوسلان بإبنيهما الأكرم « النبي محمد » - صلى الله عليه وآله وسلم - وليس بدعاء النبي الأكرم (ص) ، لأن حضرته لم يكن في زمن عبد المطلب إلا رضيعاً ، لا أكثر . ولذا كان يرفع إلى السماء أحياناً ، وأحياناً آخر كانا يمسونه بحائط الكعبة الشريفة ، ويسألان الله عز

(١) يصطبح : أي يتناول الصبح وهو كل ما أكل وشرب .
ينط : أي يصوت وهو كناية عن المجاعة التي أصابتهم .

وجل ، وبالمقام والعظمة اللتان كان يتحلى بهما ، يسألان الله الرحمة . إننا نحصل من ضمن مجموع الروايات التي وردت بصدد صيغة استسقاء هذين الرجلين الفاضلين ، نحصل على الموضوع المشروح أدناه :

١ - أن التوسل بالأولياء الإلهيين والشخصيات المقدسة ، هو من أجل نيل رحمة الحق ، وإبراز المحبة للأولياء الإلهيين ، هو عمل مجبذ جداً يؤدي إلى الحصول على رحمة الحق ، خاصة أن الهدف من التوسل إلى الأولياء الإلهيين ، خاصة في موضوع الاستسقاء ، هو أن الله سبحانه يبعث رحمته من أجل هؤلاء ، وإذا كان الآخرون غير جديرين لنزول الفيض الإلهي ، فهم جديرين لنزول رحمة الحق .

٢ - إذا كان التوسل إلى الأولياء الإلهيين أمراً غير مرضياً حقاً ، لا بد اتقائها بأوضح دليل ، في حين أنه لم ترد بهذا الصدد حتى آية واحدة ، أو حديث واحد .

٣ - يمكن من خلال رغبة النبي الأكرم (ص) في قراءة شعر أبي طالب (ع) ، وانتيا به السرور لدى سماعه شعره ، يمكن بجزم القول ، أن التوسل بالذوات المحترمة ، في مقام الدعاء ، كان عملاً مرضياً وموضع رضاية صاحب الشريعة .

٤ - يمكن من خلال الأحاديث التي نقلناها عن « الجامع الصحيح » للبخاري والسنن للبيهقي ، تصور أن مسألة التوسل بالذوات المحترمة كانت مسألة فطرية سائدة في مجتمع المسلمين ، ولهذا فعندما كان النبي الأكرم (ص) يطلب المطر ، كان يراود أذهان الذين كانوا في مجلس رسول الله (ص) ، مضمون شعر أبو

طالب (ع) ، ولم يعتبروا أبداً ، أن مضمون ذلك ينافي بمبادئ التوحيد .

الحديث السادس :

إِنَّ سَوَادَ بْنَ قَارِبَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَشَدَ لِرَسُولِ اللَّهِ قَصِيدَتَهُ الَّتِي فِيهَا التَّوَسُّلُ وَيَقُولُ :

« وَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ
وَأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبٍ
وَأَنَّكَ أَدْنَى الْمُرْسَلِينَ وَسِيلَةً
إِلَى اللَّهِ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطْيَابِ
فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ
وَأَنْ كَانَ فِيهِمَا فِيهِ شَيْبُ الذَّوَائِبِ
وَكُنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لَا ذَوْ شَفَاعَةٍ
بِمَغْنِي فَتِيلاً عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبَ »

إن قصيدة سواد بن قارب التي ألقاها في حضور النبي الأكرم (ص) تخطى بالأهمية من ناحيتين :

أولاً : لقد اعتبر الشخص النبي الأكرم (ص) أقرب وسيلة له في العتبة الإلهية المقدسة ، وسبق أن فسرنا لفظة الوسيلة ، وقيل أن هذه الألفاظ هي بمعنى « مَا يُتَوَسَّلُ بِهِ » ، وإذا استخدمت أحياناً بمعنى « القربة » أيضاً ، فهو من باب الاستخدام اللفظي لـ « السبب » في مفاد « المسبَّب » .

يمكنكم ، ومن أجل الإطلاع على حقيقة هذه اللفظة والمحتوى الواقعي لها ، الرجوع إلى المعاجم العربية ، وقد عرضنا بدورنا نصوص اللغويين العرب في البحث المنصرم .

يتضح من هذا العرض ، أن تفسير « الوسيلة » في الشعر ، يعني « تقرب » التفسير بدون شاهد ودليل ، بل يوجد في الشعر نفسه شاهداً على خلاف ذلك ، لأن الشاعر اعتبر النبي الأكرم (ص) في الشعر الرابع ، شفيعاً ، واعترف بكونه وسيلة ، وأن كون النبي بمقام الشفاعة والشفيع أنسب من كونه وسيلة .

وبعبارة أخرى : أن الشاعر وفي حضور « النبي الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم - والذي هو كاشف عن رضائه بمضمون الشعر ، فقد اعتبر جميع الأنبياء وسيلة له في العتبة الإلهية ، وبالأخص فقد اعتبر النبي (ص) أقرب وسيلة ، وأن المقصود من كون الأنبياء وسيلة ليس أن نمثل أمامهم في حالة الحياة ، ونسألهم الدعاء ، لأن طلباً كهذا غير ممكن التحقيق بالنسبة إلى بقية الأنبياء عامة ، وبالنسبة إلى رسول الإسلام (ص) حول الأشخاص البقية الذين لا يحظون بالجدارة خاصة ، فلا مناص في هذه الحالة أن نمح للـ « الوسيلة » معنى أوسع وأشمل ، ليشمل حال الذين يستطيعون أن يمثلوا أمامه .

ثانياً : يطلب الشاعر من محضر النبي الأكرم (ص) ، أن يشفع له يوم القيامة وأن هذا الموضوع هو مسألة الحاجة من الحي نفسه ، ولقد بحثنا بدورنا هذا النوع من طلب الحاجة سواء من الحي أو الميت ، وتستطيعون أنتم بصدد طلب الحاجة من الحي الرجوع إلى الصفحات السابقة ، وحول طلب الحاجة من غير الحي مراجعة الصفحات القادمة .

لقد نقل الطبراني هذه الواقعة في « الجامع الكبير »^(١) ، ونقلها الآخرون كذلك ، لقد شوّه مؤلف كتاب « التوصل إلى حقيقة التوسل » سند الحديث ، واعتبره حديثاً ضعيفاً ، ولقد أجبنا بدورنا على هذا الإستشكال في السابق .

واستطعنا إلى هنا نشير إلى مجموعة^(٢) من أحاديث التوسل ، التي وردت في كتب الحديث والتاريخ لأهل السّنة . أما في أحاديث أئمة الشيعة ، فإن التوسل بالذوات المقدسة مُسلّم به وجليّ إلى حد أن العديد منها قد وردت في أدعيتهم .

فهل يتوجب علينا أن نتعلم دساتير الإسلام من ابن تيمية ومحمد عبد الوهاب ؟ أو من آل الرسالة وعترّة النبي الأكرم (ص) ، الذين هم بحكم الحديث ثقلين ، والثقل الأصغر وعدل القرآن بالحكم .

ونكتفي الآن ، من بين الأدعية الغفيرة التي وردت في « الصحيفة العلوية »^(٣) أو في دعاء عرفة « للحسين بن علي » - عليه السلام - أو في « الصحيفة السجادية » بنقل عبارتين اثنتين ، لتشكّل مع الأحاديث السابقة عشرة كاملة .

(١) « الدرر السنية » ، الصفحة ٢٩ ، تأليف زيني دحلان ، و التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ٣٠٠ .

(٢) « الصحيفة العلوية » أدعية لأمير المؤمنين نَظَمها « الشيخ عبد الله السماهيجي » .

(٣) إنّ أحاديث التوسل التي وردت في كتب أهل السّنة هي أكثر من أن تعرض من خلال هذا ، ويكفي هذا القدر ، الشخص المصنف .

الحديث السابع :

يقول سيد الشهداء في « دعاء عرفة » :

« اللَّهُمَّ إِنَّا نَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ فِي هَذِهِ الْعَشِيَّةِ الَّتِي فَرَضْتَهَا وَعَظَّمْتَهَا بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ وَخَيْرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ » .

الحديث الثامن :

يقول « علي بن الحسين » - عليه السلام - في « الصحيفة السجادية » ، في الدعاء الذي كان يقرأه بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك ، يقول ما يلي :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ هَذَا الشَّهْرِ وَبِحَقِّ مَنْ تَعَبَّدَ لَكَ فِيهِ مِنْ اسْتِدَائِهِ إِلَى وَقْتِ فَنَائِهِ مِنْ مَلَكٍ قَرَّبْتَهُ أَوْ نَبِيٍّ أَرْسَلْتَهُ أَوْ عَبْدٍ صَالِحٍ اخْتَصَصْتَهُ »^(١) .

وينتهي إلى هنا بحثنا حول التوسل بالشخصيات والذوات المقدسة والذي يشكل البحث الثالث من هذا الدراسة . وكافية بالطبع الأدلة لطالبي الحقيقة .

وقد حان الوقت الآن ، أن نبحث ونتناقش حول الموضوعان الآخرين اللذان يشكّلان القسم الرابع والخامس من أبحاثنا الخمسة حول التوسل :

١ - الحلف على الله بحق الأولياء .

٢ - الحلف بغير الله سبحانه .

(١) « الصحيفة السجادية » الدعاء رقم ٤٤ .

القسم الرابع

الحلف على الله بحق ومقام الأولياء

لقد بقي من ضمن أقسام التوسل الخمسة ، قسمان اثنان وهما ممنوعان لدى الوهابي ومحرمّان . إن هذين النوعين من التوسل عبارة عن :

١ - الحلف على الله بحق ومقام الأولياء .

٢ - الحلف بغير الله سبحانه .

وإليك دراسة الموضوع الأول :

لماذا يجب أن يعتبر الحلف على الله بمقام وحق الأولياء وأحباء عتبه حراماً أو مكروهاً ؟

أن القرآن الكريم يثني على صفوة ، ويصفهم قائلاً :

﴿ الصّابِرِينَ وَالصّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْقِيْنَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ ﴾^(١) .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٧ .

والآن إذا حلف شخص بمقام ومكانة هذه الصفوة ، وبعد أداء صلاة العشاء في منتصف الليل ، قائلاً :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ اغْفِرْ لِي » .

فلماذا يجب أن نقول أنه أصبح كافراً ، فأبي أصل يا ترى من أصول الإسلام الواضحة قام بإنكارها ؟ لماذا يجب أن نقول أنه أشرك ؟ ، هل تأمل في ثنوية خالق العالم (للعالم خالقين اثنين) ، ليكون قد أصاب بإيمان التوحيد في الخالقية ضرراً ؟ أو أنه اعتبر مدبر العالم ومخرجه اثنان ، لكي يصاب التوحيد في الربوبية بأذى ؟ أو أنه عبد غير الله تعالى ، ليكون توحيده وعبادته في معرض الاختلال ؟ في الوقت الذي نهض في منتصف الليل حيث الظلام يخيم على نصف العالم ، نهض يذكر الله سبحانه وطقق بعبادته ، مرتجفة أوصاله من الخوف ، وبأكية عيناه .

إن القرآن الكريم يضع المحك الأكثر وضوحاً لتمييز التوحيد عن الشرك في تناول أيدينا ، وما علينا إلا أن نفرز الموحد عن المشرك ، وأن لا نطلق صفة الشرك على المجتمع الإسلامي بدون الضابطة القرآنية . وألاً نحصر التوحيد الإسلامي في إعرابي من نجد جواب في الصحارى .

﴿ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (١) .

(١) سورة الزمر ، الآية ٤٥ .

ويصف في آية شريفة أخرى « المجرمين » الذين هم مشركون جميعاً ، كالآتي :

﴿ إِنَّمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا آلِهَتَنَا لَشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ (١) .

فهل صحيح أن الشخص الذي يتحمل آلام البرد والأرق وعدم النوم في ليالي الشتاء الباردة ، أو ليالي الصيف القصيرة ، وبعد أداء نوافل الليل ، والحلف بالله تعالى بمقام الأولياء ، هو كالمشركين يشمئز من التبتل إلى الله ، ويغدو فرحاً من التضرع إلى الأوثان ؟

نقرأ في « الصحيفة العلوية » التي جمع فيها المرحوم « الشيخ عبد الله السماهيجي » ، « أدعية أمير المؤمنين » - عليه السلام - ، نقرأ أن الإمام قام في نوافل الليل ، بعد الركعة الثامنة ، قام بالدعاء على الوجه التالي :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحُرْمَةِ مَنْ عَادَ بِكَ مِنْكَ وَلَجَأُ إِلَى عِزِّكَ وَاسْتَظِلُّ بِفَيْئِكَ وَاعْتَصِمَ بِحَبْلِكَ وَلَمْ يَثِقْ إِلَّا بِكَ » (٢) .

ويقول الإمام - عليه السلام - أيضاً في دعائه الذي علّمه لأحد من صحبه :

« وَبِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ وَالرَّاعِبِينَ إِلَيْكَ وَالْمُتَعَوِّذِينَ بِكَ ، وَالْمُتَضَرِّعِينَ إِلَيْكَ ، وَبِحَقِّ كُلِّ عَبْدٍ مُتَعَبِّدٍ لَكَ فِي كُلِّ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ أَوْ

(١) سورة الصافات ، الآيات ٣٥ و ٣٦ .

(٢) الصحيفة العلوية ، دار النشر الإسلامية (انتشارات إسلامي) ، الصفحة ٣٧٠ .

سهلٍ أو جبلٍ أدعوكَ دُعَاءَ مَنْ اشْتَدَّتْ فَاقَتُهُ . . . »^(١) .
 فهل أن لمناجاة مترعة بالروح كهذه ، وإظهار التذليلات بعبئة
 الحق ، نتيجة أخرى غير تعزيز التوحيد (لا الإستعانة بغير الله
 سبحانه) وإبداء الرغبة إلى أصحاب الله ، والذي يشكل بدوره نوعاً
 من التمايل إلى الله تعالى ؟

فلهذا يجب غض النظر عن اتهام الكفر والشرك اللذان يتواجدان
 غالباً في الموائد الطليقة ومن جميع الأجناس ، وأن تدرس المسألة من
 زاوية نظر أخرى .

استناداً على هذا ، فإن جماعة من متحفظيهم طرحت موضوع
 الحلف بالله بحق الأولياء في أطر التحريم والكراهة ، وعلى خلاف
 الصنعاني المتسرع الذي وضع المسألة في دائرة الكفر والشرك ، ولم
 يأت بكلامٍ عن الكفر والشرك .
 والآن ، بعد أن اتضح محور الحديث في أنه يجب علينا أن
 ندرس الموضوع في إطار الحزام والمكروه ، يتوجب علينا أن نوضح
 الأدلة على صحة توسلٍ كهذا .

الدليل الأول : إطلاق آيات العبادة والتضرع إلى الله
 ١ - إن القرآن الكريم يدعو الناس إلى عبادة الله جلّ جلاله .
 والتبتل إليه ، قائلاً :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي اسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾^(٢) .

(١) نفس المصدر السابق ، الصفحة ٥١ - قام الإمام بتعليم هذا الدعاء لـ « أويس » .

(٢) سورة غافر : الآية ٦٠ .

أويقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾^(١) .

وأمثال هذه الآيات الشريفة .

لم يرد في هذه الآيات أي نوع من قيدٍ وشرطٍ لدعوة الله سبحانه وتعالى والتبتل إليه ، ولهذا فإن العبادة والدعوة وذكر الله تعالى ، جائزة في كل مكان وبأية كيفية كانت ، ومشروعة ، إلا ما نهى عنها في الدين الإسلامي نفسه ، من عبادات في حالات خاصة وبأشكال معينة .

مثلاً ، إن الصلاة والصوم وهما للشخص المنتخب عبادة الله سبحانه وتعالى ، وحرام للمرأة التي هي في فترة الحيض ، في حين أن الدعاء والتبتل إلى الله ليسا ممنوعين في هذه الحالة .

للصلاة والصوم نفسيهما حدوداً وشرائط في الشرع الإسلامي ، وعلى المصلي أن يراعيها لدى أدائه هاتين الفريضتين ، ولا يستطيع أن يفرض القيود بدون مراعاة هذه الشروط .

أما إذا لم يفرض أي قيد أو شرط لدى أداء فريضة ما ، فنستطيع تأديتها كما يحلو لنا ، مثلاً أن دين الإسلام الحنيف يأمرنا لأن نتوضأ ، أما لا يضع شرطاً في ماء معين وحالة ومكان خاصين ، فنستطيع بذلك أن نتوضأ بأي ماء نريد : بماء البئر أو التربة أو المطر أو . . . غيرها ، ونستطيع أن نؤدي هذه العبادة في حالات مختلفة ، وقوفاً وجلساً ،

(١) سورة البقرة : الآية ٢١ .

وفي أية منطقة نريد ، وتحت المطر ، وتحت السقوف . . . وأن هذه الشمولية بسبب أنه لم يرد في قواعد الوضوء أي قيد وشرط .

ونفس هذا الكلام نقوله حول الآية الشريفة ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وأمثالها ، فإن آيات الدعاء إلى الله تعالى وعبادته مطلقة تماماً ، ولم يعتبر هذا الحلف في الاستعاذة بالله والمسألة منه تعالى بمقام أعزاء العتبة الإلهية ، ممنوعاً أبداً . وعلى هذا ، فإن الآيات المتعلقة بدعوة الله سبحانه والتبتل إليه ، كانت تشتمل على جميع الأقسام ، ويكتفي لإثبات الجواز ، كل أنواع الدعاء والرغبة الكافية .

الدليل الثاني : حدوث هذه الأنواع من التوسلات في الإسلام لا يجوز هذا النوع من التوسل ، الآيات المتعلقة بالعبادة والدعاء ، بل أنه وردت توسلات كهذه أيضاً في الروايات الإسلامية .

ذكرنا في الفصل الثالث ، حيث كان محور البحث فيه ، هو التوسل بالشخصية ، ذكرنا أحاديث تمت مسألة الله سبحانه فيها بحق ومقام الأولياء ، ورغم أنه لم يرد موضوع الحلف في هذه الأحاديث بشكل صريح ، إلا أن روح العبادات والتوسلات تعني الحلف بالله عز وجل بحق ومقام الأولياء .

في الحديث الأول علّم « النبي الأكرم » - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك الأعمى ، علمه هكذا ، ليقول :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ » .

نقل « أبو سعيد الخدري » في الحديث الثاني عن « النبي الأكرم » (ص) ، هذا الدعاء :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ
هذا » .

وفي الحديث الثالث تَابَ النَّبِيُّ « آدَمَ » - عليه السلام - بالشكل
التالي :

« أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إِلَّا غَفَرْتَ لِي » .

وفي الحديث الرابع ، عندما وارى الرسول الأكرم (ص) أم
علي بن أبي طالب (ع) في التراب ، دعا لها كالتالي :
« إِغْفِرْ لَأُمِّي فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ وَوَسَّعْ عَلَيْهَا مَدْخَلَهَا بِحَقِّ نَبِيِّكَ
وَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِي » .

رغم أنه لم ترد في هذه الأنواع من الجمل ، لفظة الحلف ، بيد
أن مفادها الواقعي ، هو الحلف بالله تعالى بحقوق الأولياء ، وهو ما
يقال : أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ ، يعني أحلف بك بحق هؤلاء .

إن الأدعية التي نقلت في الصحيفة السجادية عن الإمام الرابع
- عليه السلام - هي بحد ذاتها برهان واضح عن صحة وثبات توسلا
كهذا .

إن عظمة معاني أدعية الصحيفة وفصاحة كلماتها وبلاغة معانيها
تجعلنا بمنأى عن أي نوع من الكلام في صحة انتساب ذلك إلى
الإمام .

كان « الإمام السجاد » - عليه السلام - يسأل الله تعالى ويبتهل
إليه في يوم عرفه ، وعلى الوجه التالي :

« بِحَقِّ مَنْ انْتَجَبْتَ مِنْ خَلْقِكَ ، وَبِمَنْ اصْطَفَيْتَهُ لِنَفْسِكَ ، بِحَقِّ مَنْ اخْتَرْتَ ، مَنْ بَرَّيْتَكَ ، وَمَنْ أَجَبْتَ لَشَأْنِكَ ، بِحَقِّ مَنْ وَصَلَتْ طَاعَتُهُ بِطَاعَتِكَ ، وَمَنْ نَيْطَتْ مُعَادَاتِهِ بِمُعَادَاتِكَ » (١) .

عندما قام الإمام - عليه السلام - بزيارة قبر جدّه المؤقر « أمير المؤمنين » - عليه السلام - ، دعا بعد انتهاء هذه الزيارة ، قائلاً :

« اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ دُعَائِي وَاقْبَلْ ثَنَائِي وَاجْمَعْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَوْلِيَائِي بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ » (٢) .

ليس هذا السجاء - عليه السلام - لوحده يحلف في أدعيته بالله عزّ وجل بحق أعزاء عتبه الإلهية ، بل أن هذا النوع من التوسل موجود في الغالب ، وذلك في الأدعية التي وردت من قبل أئمة الشيعة الأطهار .

يقول زعيم الأحرار « الإمام الحسين بن علي » - عليه السلام - ضمن دعاء ، ما يلي :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكَلِمَاتٍ وَمَعَاقِدِ عِزِّكَ وَسُكَاكِ سَمَوَاتِكَ وَأَرْضِكَ وَأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ أَنْ تَسْتَجِيبَ لِي فَقَدْ دِهَقَنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرٌ فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تَجْعَلَ مِنْ أَمْرِي يُسْرًا » .

إن هذه الأدعية كثيرة ، إلى حد أن نقلها جميعاً ، يؤدي إلى الإطالة في الكلام ، فها حبذا لو اختصرنا الكلام إلى هذا الحد ، وأن نبداً في بيان أدلة واعتراضات الطرف المقابل .

(١) « الصحيفة السجادية ، الدعاء رقم ٤٧ .

(٢) « مفاتيح الجنات » زيارة « أمين الله » .

الإعترض الأول :

يجمع علماء الإسلام ، أن الحلف على الله تعالى للمخلوق ،
أو بحق المخلوق ، هو حرام^(١) .

الإجابة :

يعني الإجماع أن علماء الإسلام في أي عصر كان ، وفي كل
العصور ، يجدهن اتفاقاً في وجهة النظر حول حكم من الأحكام ،
وبهذه الصورة فإن اتفاق الرأي هو حسب ما يرتأيه أهل السنة، أحد
الحجج الإلهية وباعتقاد علماء الشيعة هو حجة من هذه الناحية ،
والذي يدل على رأي الإمام المعصوم وموافقه والذي يعيش بين
ظهراني الأمة .

والآن يتبادر سؤال لنا ، هل هناك اتفاق في الرأي كهذا ، حول
هذه المسألة ؟ إننا نضع علماء الشيعة وعلماء أهل السنة الآخرين ،
جانبا . . وتأخذ بنظر الاعتبار رأي أئمة المذاهب الأربعة كسند ، فهل
أن هؤلاء الأئمة الأربعة أعطوا الفتوى بصدد تحريم موضوع كهذا ؟
وإذا فعلوا ذلك ، نرجوكم تبيان نص فتواهم مع ذكر إسم الكتاب
وتحديد الصفحة .

ولم يذكر هذا النوع من التوسل أساساً في الكتب الفقهية
وأحاديث علماء السنة ، لكي يعطوا رأياً بصددها .

إن أشمل كتب أهل السنة الفقهية ، هو كتاب « المعني في شرح

(١) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٣٢ ، نقلاً عن « الهدية السنية » .

مختصر الخرقى « لمؤلفه « ابن قدامة (عبد الله ، موفق الدين) » . وهو من فقهاء هذه الجماعة المعروفين ، والذي ينقل في هذا الكتاب أراء المذاهب الأربعة ، ويستدل في النهاية على أحقية مذهب الإمام أحمد بن حنبل .

ولقد جاء ببحوث^(١) تتعلق باليمين والعهد ، ولم يتطرق في هذا الموضوع إلى البحث ، ولم ينقل في هذا المجال حديثاً عن أي إمام من الأئمة ، في حين أنه بحث موضوع الحلف بغير الله تعالى ، والذي يشكل الفصل الخامس من بحثنا^(٢) .

إن كتاب « الفقه على المذاهب الأربعة » الذي قام « عبد الرحمان » بتأليفه ، هو المصدر الرسمي لعلماء السنة اليوم ، حيث أنه بحث حول موضوع الحلف بغير الله تعالى^(٣) ، في حين أنه لم يتطرق إلى موضوع الحلف بالله . لغيره .

إن أشمل كتاب من حيث جمع الأحاديث المتعلقة بالفقه ، هو كتاب « السنن الكبرى » للبيهقي ، فقد أورد أحاديثاً^(٤) تتعلق بالحلف والعهد ، ولم ينقل حول موضوع كهذا حديثاً ، أساساً . ففي هذه الحالة ، أين هو الإتفاق والإجماع اللذان يدّعي بهما مؤلف كتاب « الهدية السنية » ؟ أن الشخص الوحيد الذي ينقل التحريم عنه ، هو وجه غير معروف باسم « العز بن عبد السلام » .

(١) المعني في شرح مختصر الخرقى : المجلد التاسع ، الصفحة ٤٩٠ - ٥٤٤ .

(٢) المصدر السابق : الصفحة ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة : المجلد الثاني ، الصفحة ٧٤ - ٧٥ ،

(٤) السنن الكبرى : المجلد العاشر ، الصفحة ٢٦ - ٧٢ .

وكأن علماء الإسلام قد تلخصوا في كتاب « الهدية السنية » وفي « العز بن عبد السلام » .

ثم نقل عن « أبي حنيفة » وتلميذه « أبو يوسف » في أنهما قالا أيضاً ، أن قول « بحق فلان » هو مكروه .

وباختصار فلا يوجد هناك من دليل بإسم الإجماع في هذا المضمار . والآن سنقوم بتحليل دليل هؤلاء الثاني .

الإعترض الثاني :

« إن المسألة بحق المخلوق لا تجوز لأنه لا حق للمخلوق على الخالق »^(١) .

الإجابة :

إن استدلالاً كهذا ليس إلا اجتهد قبال النص الصريح ، فإن كان لا حق للمخلوق على الخالق ، حقاً ، فلماذا يا ترى ، أنه لله عز وجل حقوقاً كهذه في الأحاديث الماضية ، الفصل الثالث ، حسب ما يحلف به « آدم » ، و « رسول الإسلام » - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وإن مسألة الله تعالى هي بسبب نفس هذه الحقوق ؟ فضلاً عن ذلك ، فإنه في مسألة الله سبحانه ، لا يستوجب أن تأتي بمفردة « عليك » ، وإنما يكفي أن نقول : « اللهم إني أسألك بحق فلان أو بفلان » ، وأن الحق في اللغة العربية يعني الأمر الثابت والسديد ، والمقصود من هذا

(١) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٣٣١ ، نقلاً عن « القدوري » .

الحق ، هي الصفات المرموقة لأعزاء العتبة الإلهية ، أمثال : قرب الزهد ، والتقوى ، عبادة العلم ، وليست صفات ثابتة كهذه لازمة لشخص تكون هذه الحقوق مضرة له .

لترك كل هذه ، فكيف يمكننا تبرير آيات القرآن الكريم ، يا ترى ؟ حيث أن القرآن وصف عباده الصالحين ، بأن لهم حقوق على الله تعالى . وإليكم آيات القرآن البينات :

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) .

﴿ وَعَدَّا عَلَيْهِ^(٢) حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾^(٣) .

﴿ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤) .

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾^(٥) .

فهل يصح أن نأول جميع هذه الآيات الشريفة ، من تلقاء أنفسنا ، وبسبب سلسلة من أوهام لا أساس لها ؟ إن هذا النوع من التعبير يتواجد بكثرة في الأحاديث الإسلامية أيضاً .

وإليكم نماذج من هذه الأحاديث :

١ - « حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنٌ مَن نَكَحَ التِّمَاسَ الْعَفَافَ مِمَّا حَرَّمَ

الله »^(٦) .

(١) سورة الروم : الآية ٤٧ .

(٢) يعود الضمير في مفردة « عليه » إلى « الله » الذي ورد في مستهل الآية .

(٣) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٤) سورة يونس : الآية ١٠٣ .

(٥) سورة النساء : الآية ١٧ .

(٦) « الجامع الصغير » للسيوطي ، المجلد ٢ ، الصفحة ٣٣ .

٢ - قال رسول الله: «ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُ ، الغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالْمَكَاتِبُ الَّتِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ ، وَالنَّائِكُ الَّذِي يُرِيدُ التَّعَقُّفَ» (١) .

٣ - «كَانَ لِلنَّبِيِّ نَاقَةٌ تُسَمَّى الْعُضْبَاءُ لَا تُسَبِّقُ فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ فَسَبَقَهَا فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى عَرَفَهُ فَقَالَ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ» (٢) .

٤ - «أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ» (٣) .
أن الفئة الوهابية تروم ويتكلفات كثيرة ، أن تحط من مكانة هذا النوع من الروايات والأحاديث ، من حيث السند أو الدلالة ، لأنها لا ترغب في أن تذكر مجموعة وصفها الله سبحانه وتعالى بالكبيرة ، أن تذكرها بالعظمة .

وواضح وضوح الشمس ، أنه ليس لأي شخص ينساق وراء المِلذات حَقٌّ عَلَى اللَّهِ ، حتى وإذا عَبْدَ اللَّهُ سبحانه قروناً عديدة ، وامْتثل أمامه خاضِعاً خاشِعاً ، لأن كل ما يملكه عبد الله ، فهو من عند الله تعالى ، فلم يبذل من نفسه شيئاً في سبيل الله ، لأن يستحق بلذة أجراً .

(١) «سنن ابن ماجه» ، للقرظيني ، المجلد ٢ ، الصفحة ٨٤١ ، طبعة دار إحياء الكتب العربية - مصر .

(٢) «الصحيح» للبخاري ، الجزء الرابع ، المطبعة المنيرية ، الصفحة ٩٦ ، باب : ناقة النبي .

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لإبن الأثير (مجد الدين أبو السعادات المبارك) (١١٤٩ - ١٢١٠ م) ، مادة «الحق» .

ولهذا فإن المقصود من هذا الحق في هذه الحالات ، هو الأجر الإلهي نفسه ، والمقام والمكانة^(١) التي منحها إياهم صاحب الحق اعتناءً خاصاً بهم ولطفاً من لدنه ، عهداً بهم ، وأن حقاً كهذا على عهدة الله جلّ جلاله ، هو دليل على عظمته وجلاله .

ومن أجل الإطلاع على أنه كيف يجد العبد الفقير والمحتاج ، حقاً على « ذمة الله » ، تأملوا بدقة في مضمون الآيتين اللاحقتين . فإن « القرآن الكريم » يعتبر الله سبحانه في إحدى الآيات « المالك المطلق » ، والعباد المالكون في الظاهر ، ممثليه في الأموال التي هي بحوزتهم ، وهنا حيث يقول :

﴿ ... وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾^(٢) .

بيد أن « القرآن الكريم » نفسه يطرح في آيات لاحقة ، استقراض الله سبحانه من عباده ، ويتجلى الإنسان في هذه الآية بصورة المالك الذي يقرض الله تعالى « مالك السموات والأرض » قرضاً حسناً ، حيث يقول :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا ﴾^(٣) .

وكما كانت الآية الشريفة الأولى ، فإن الآية التالية تدل على حقيقة تكوينية وواقعية ووضاعة ، حيث تقول :

(١) أنظروا « النهاية في غريب الحديث والأثر » لابن الأثير ، مادة « الحق » .

(٢) سورة الحديد : الآية ٧ .

(٣) سورة الحديد : الآية ١١ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ ﴾^(١) .

وتدل هذه الآية أيضاً ، على اللطف الإلهي ورحمته الغيبية ،
حيث يبدي في تشريعها كرامة وعظمة من لدنه ، إلى حد أنه يطلب من
عبده قرضاً .

إن مسألة عهد الله سبحانه وتعالى ، وكون أن للمخلوق حقاً
عليه ، هي مطلقة كالقرض الذي يقرضه الله من العبد الفقير
والمسكين ، وأن هذه العهود وكونهم على حق ، هي من باب اللطف
والكرامة اللتان وعد بهما الله وجعل بكمال لطفه ، نفسه مديناً لعباده
الصالحين ، واعتبر هؤلاء كونهم أصحاب الحقوق ، ونفسه « من عليه
الحق » ملتزماً .

واتضح إلى هنا ، ثبات مسألة الله تعالى ، أو مسألته بحق
الأولياء الإلهيين . والآن ، ومن أجل تكملة البحث ، نبدأ في طرح
القسم الخامس .

(١) سورة فاطر : الآية ١٥ .

القسم الخامس

الحلف بغير الله تعالى

إن الحلف بغير الله ، هو من ضمن المسائل التي للفتة الوهابية حساسية حياله^(١) ، وقد اعتبره أحد كتّابهم بإسم الصنعاني أساساً للشرك ، وذلك في كتاب « تطهير الإعتقاد »^(٢) ، ووصفه مؤلف كتاب « الهداية السنية » شركاً صغيراً^(٣) .

إننا سوف نبحث المسألة في أجواء بعيدة عن التعصب ، بفضل الله تعالى ، وسوف نتخذ من كتاب الله والسنن النبي الأكرم (ص)

(١) رغم أن هذا الفصل ليس ضمن فصل حقيقة التوسل ، حيث أن حقيقة التوسل هي أن يتخذ الإنسان شخصاً وسيلة وذريعة لنفسه صوب الله تعالى ، ومن الجدير في الحلف بغير الله ، وليس هذا مطروحاً ، ولأن هذا البحث يشابه نوعاً ما ، موضوع التوسل ، وأن نتيجة الحلف بغير الله هو نوع من التعظيم وإبداء الإحترام لـ « القسم به » ، فيجدر بنا أن ندرس هذا الموضوع في قسم التوسل ، وتنتهي في هذا الفصل الدراسات المتعلقة بموضوع التوسل .

(٢) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٣٣٦ - نقلاً عن كتاب « تطهير الإعتقاد » الصفحة ١٤ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة ٣٣٦ ، نقلاً عن كتاب « الهدية السنية » ، الصفحة ٢٥ .

الصحيحة ، والأئمة المعصومين ، نبراساً ينير لنا الدرب .

أدلتنا على جواز الحلف بغير الله

الدليل الأول :

إنَّ القرآن الكريم الذي هو الرائد الأعلى والثقل الأكبر والنموذج الحياتي لكل مسلم ، وردت في هذا المصحف عشرات الأحلاف بغير الله ، حيث أن جمع هذه كلها في هذه الصفحات يؤدي إلى إطالة البحث أكثر .

إن الله عزَّ وجلَّ حلف في « سورة الشمس » لوحدها بسبعة أشياء من مخلوقاته ، وهذه السبعة أشياء عبارة عن :

« الشمس ، ونورها ، وقمر النهار ، والليل ، والسماء ، والنفس الإنسانية والأرض »^(١) .

ولقد ذكر الحلف أيضاً في السور الأخرى ، مثلاً في « سورة النازعات » بثلاثة أشياء^(٢) ، وفي « سورة المرسلات » بشيئين اثنين^(٣) .

إنَّ لكل مسلم معرفة ناجزة بالآيات اللاحقة ، التي تدل جميعها على الحلف بغير الله ، مثلاً :

(١) سورة الشمس : الآيات ١ - ٧ .

(٢) سورة النازعات : الآيات ١ - ٣ .

(٣) سورة المرسلات : الآيات ١ - ٣ .

﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سَيْنِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾^(١) .
 ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾^(٢) .
 ﴿وَالْفَجْرِ وَلِيَالِ عَشْرِ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرْ﴾^(٣) .
 ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابِ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ
 وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾^(٤) .
 وكذلك هي سُورَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْآخَرَى ، كَمَثَلِ سُورَةِ
 « الْبُرُوجِ » ، « الطَّارِقِ » ، « الْقَلَمِ » ، « الْعَصْرِ » ، « الْبَلَدِ » ،
 إِلَى حَدِّ أَنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى حَلَفَ بِشَكْلِ بَصْرِيحِ بِحَيَاةِ النَّبِيِّ
 الْأَكْرَمِ (ص) ، وَيَقُولُ :
 ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٥) .

فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ لِهَذِهِ الْأَحْلَافِ الْمُتَوَالِيَةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي
 الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، أَنْ الْحَلْفَ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ شُرْكٌ وَحَرَامٌ ؟
 لَا رَيْبَ فِي أَنْ هَدَفَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَحْلَافِ ، هُوَ تَبْيَانُ
 عَظَمَتِهَا ، وَيُرُومُ عَبْرَ هَذَا الطَّرِيقِ أَنْ يُوْجِهَ نَظْرَنَا إِلَى التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي
 جُلٍّ « الْمَقْسَمِ بِهِ » لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ ، فَإِنْ قَارَىءَ

-
- (١) سُورَةُ التِّينِ : الْآيَاتُ ١ - ٣ .
 (٢) سُورَةُ اللَّيْلِ : الْآيَاتُ ١ - ٢ .
 (٣) سُورَةُ الْفَجْرِ : الْآيَاتُ ١ - ٤ .
 (٤) سُورَةُ الطُّورِ : الْآيَاتُ ١ - ٦ .
 (٥) سُورَةُ الْحَجَرِ : الْآيَةُ ٧٢ .

القرآن الكريم ، الذي يعتبرها لنفسه : « الإمام » ، و « الأسوة » ، و « القائد » ، و « الأنموذج » ، يتعلم الدرس من هذه الأحلاف ، بحيث يستطيع في مقام الحلف ، أن يحلف بإحداها والتي حلف بها الله سبحانه وتعالى .

يقول البعض من عديمي الذوق والذين لا يعلمون شيئاً من أهداف القرآن ، أنه يمكن أن يكون صدور شيء من الله تعالى جميلاً ، وأن يكون صدور نفس الشيء من غير الله سبحانه ، غير جميل .

بيد أن الإجابة على ذلك واضحة ، فإذا كانت واقعية الحلف بغير الله ، في الحقيقة ، شركاً وهي تشبيه غير الله بالله تعالى ، فلماذا يا ترى ارتكب الله نفسه شركاً كهذا ، مطلقاً أو شركاً صغيراً ، فهل صحيح حقاً أن يتخذ الله في الواقع شريكاً لنفسه ، وأن يردع غير نفسه عن شرك كهذا ؟

إن الفئة التي ترى نفسها مدانة حيال هذا البرهان ، تسعى في الحال أن تتخذ لفظة كـ « الرب » في تقديرها من ضمن أحلاف القرآن الكريم بغير الله ، وأن تحوّل جميع أقسام القرآن إلى حلف أحد ، وهو الحلف بالرب والشمس والقمر و . . . غيره^(١) .

إننا نترك للقراء الأعزاء الحكم على هذا التأويل الذي لا شاهد له . أليست خيانة بالمصحف السماوي ، أن نقول : إن المقصود من

(١) نقل كتاب السنن الكبرى ، المجلد العاشر ، الصفحة ٢٩ ، وبداية المجتهد . المجلد الأول ، الصفحة ٣٩٤ طبعة مصر نقلاً هذا التأويل البارد عن البعض .

الآية الشريفة ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ هو الحلف بالله لعمرك ؟

لا ريب في أن ذوي القلوب اليقظة ، الذين يرومون التلمذة على القرآن الكريم ، ويريدون ان يتخذوه نبراساً ينير لهم طريق الحياة ، كانوا يتعلمون الدروس من هذه الآيات ، ويعتبرون الحلف بغير الله تعالى ، خاصة اذا كان مشفوعاً بقداسة وطهارة خاصة ، كالنبي والإمام ، يعتبرونه جائزاً ومستحسناً ، ولم يكونوا يولون الأهمية لتأويلات وحيل كهذه على القرآن الكريم .

الدليل الثاني :

لقد حلف النبي الأكرم (ص) بغير الله تعالى في حالات عدة ، ومن ضمنها :

١ - حديث عن صحيح مسلم :

جاء رجلٌ إلى النبيِّ فقالَ يا رسولَ الله أَيُّ الصَّدَقَةِ أعظمُ أجراً ؟ فقال أملك وأبيك لتُنبأَنَّهُ أن تُصدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ تخشى الفقر وتأمل البقاء» (١) .

٢ - حديث آخر عن « صحيح مسلم » :

« جاء رجلٌ إلى رسولِ اللَّهِ من اهلِ نجدٍ يسألُ عَنِ الإسلامِ ،

(١) « صحيح مسلم » ، كتاب الزكاة ، الجزء الثالث ، باب أفضل الصدقة ، الصفحة ٩٤ ، طعة اسطنبول ، أن لفظة « لتنبأَنَّهُ » صيغة المجهول ، وجواب للحلف ، أي لتخيرته .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) : خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلِ ، فَقَالَ : هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ ؟ قَالَ : لَا ، إِلَّا أَنْ تَطُوعَ ، وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ ، فَقَالَ : هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ ؟ قَالَ : لَا ، إِلَّا أَنْ تَطُوعَ ، وَذَكَرَتْهُ رَسُولُ اللَّهِ (ص) الزَّكَاةَ فَقَالَ : هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ ؟ قَالَ : لَا ، إِلَّا أَنْ تَطُوعَ ، فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ أَوْ أَدْخَلَ الْجَنَّةَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ ^(١) .

لقد تشبث « القسطلاني » في كتاب « إرشاد الساري » ^(٢) ، ورام أن يأول هذه الأحاديث كآيات القرآن الكريم ، وأن يستخدم لفظة « الرب » بنظر الاعتبار ، ويقول تارة ، إن لفظة « وأبيك » تستخدم لا إرادياً في اللغة العربية ، ولم يكن الهدف منها حِلْفاً وقسماً .

٣ - حديث عن « مسند أحمد بن حنبل » :

« فَلَعَمْرِي إِنْ تَكَلَّمْتُ بِمَعْرُوفٍ وَتَنَهَيْتُ عَنْ مُنْكَرٍ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَسْكُتَ » ^(٣) .

(١) « صحيح مسلم » ، الجزء الأول ، باب « ما هو الإسلام وباين خصاله » ، الصفحة ٣٢ - لقد نقل هو هذا الحديث بطريقتين ، في إحداها توجد فقط : أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ ، وله في الأخرى : أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ أَوْ أَدْخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ . إن ما يثير الإعجاب جداً ، هو ما يدعي به عبد البركة نقلاً عن ابن قدامة في كتاب « المعني » المجلد العاشر ، الصفحة ٤٩٢ ، فقد ادّعى أن جملة « أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ » لم ترد عبر « الصحيح » ، وكان « صحيح مسلم » ، لا يعتبر لديه ضمن « الصحيح » .

(٢) « إرشاد الساري » ، المجلد ٩ ، الصفحة ٣٥٨ .

(٣) « المسند » لأحمد ابن حنبل ، المجلد الخامس ، الصفحة ٢٢٥ .

- ٤ - حديث آخر عن « مسند أحمد ابن حنبل » :
 « فَلَعَمْرِي مَنْ أَكَلَتْ بِرْقِيَّةً بَاطِلٍ ، لَقَدْ أَكَلَتْ بِرْقِيَّةً حَقًّا » ^(١) .
- ٥ - حديث عن « السنن » لإبن ماجه :
 « فَلَعَمْرِي مَا أَتَمَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَجَّ مَنْ لَمْ يَطْفَ بَيْنَ الصَّفَا
 وَالْمَرْوَةِ » ^(٢) .
- ٦ - حديث آخر عن « السنن » لإبن ماجه :
 « وَلَعَمْرِي لَوْ أَنَّ كُلُّكُمْ صَلَّى فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ » ^(٣) .
- إن « أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » (عليه السلام) أنموذج التربية
 الإسلامية - حسب ما تجمع عليه الأمة - ، هو الشخص ذو البصيرة الأكثر
 بقوانين الإسلام ومنافذه وحلاله وحرامه ، فقد حلف كراماً بدمره في
 خطبه ورسائله وكلماته ، وبدورنا نعرض هنا البعض منها :
- ١ - « وَلَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالٍ مِنْ خَالَفَ الْحَقَّ . . . مِنْ إِدْهَانٍ
 وَلَا إِيْهَانٍ » ^(٤) .
- ٢ - وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عُمُودٌ » ^(٥) .

(١) نفس المصدر السابق ، الصفحة ٢١١ ، بسندين اثنين ، جاءت في كليهما لفظة
 « أَكَلَتْ » بصيغة التأنيث .

(٢) « السنن » لإبن ماجه ، المجلد ٤ ، الصفحة ٩٩٥ ، طبعة دار إحياء الكتب العربية .

(٣) نفس المصدر السابق ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٥٥ .

(٤) « نهج البلاغة » ، محمد عبده ، الخطبة ٢٣ .

(٥) نفس المصدر السابق ، الخطبة ٥٦ .

- ٣ - وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلَا بِهِمُ الْعُهُودُ ^(١) .
- ٤ - « وَلَعَمْرِي لِيُضَعَفَنَّ لَكُمْ التَّيَّةُ مِنْ بَعْدِي أضعافاً ^(٢) » .
- ٥ - « وَلَعَمْرِي لَئِنْ كَانَتْ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى تَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ ، فَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ سَبِيلٍ ^(٣) » .
- ٦ - « لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهْيِهَا الْمُؤْمِنُ ^(٤) » .
- ٧ - « فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ ^(٥) » .
- ٨ - « وَلَعَمْرِي يَا مُعَاوِيَةَ ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ ، لَتَجِدَنِي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ ^(٦) » .
- ٩ - « وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ وَشِقَاقِكَ ^(٧) » .
- ١٠ - « وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقَّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَةِ وَالْكِتْمَانِ ^(٨) » .

لقد حلف أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذه الحالات العشرة ، بعمره كونه مخلوقاً لله سبحانه وتعالى . فهل أن للإمام معرفة

(١) نفس المصدر ، الخطبة ٨٥ .

(٢) نفس المصدر ، الخطبة ١٦١ ،

(٣) نفس المصدر ، الخطبة ١٦٨ .

(٤) نفس المصدر ، الخطبة ١٨٢ .

(٥) نفس المصدر ، الخطبة ١٨٧ (القاصعة) .

(٦) نفس المصدر ، الرسالة ٦ .

(٧) نفس المصدر ، الرسالة ٩ .

(٨) « نهج البلاغة » ، الرسالة ٥٤ .

تامة بحقيقة الإسلام وحدود الحلال والحرام ، أم أن النُّهَاب
النجديون ، هجموا على قبائل المسلمين العزل كراراً ، بتهمة
الشرك ، ونهبوا أموالهم وقاموا بوضع حمامات من الدماء ؟

لم تكن الحفنة الوهابية تعتدي على القبائل المحيطة فقط ، بل
أنها قامت بالهجوم على كربلاء ، مرة في عام ١٢١٦ الهجري ، وتارة
أخرى في عام ١٢٥٩ ، ولم ترحم لا على الصغير ولا على الكبير ،
وضربت خلال ثلاثة أيام أعناق ستة آلاف شخص ، ونهبت كقوات
يزيد ، جميع نفائس الحرم الشريف . لماذا ؟ لأن هذه المجموعة
تحلف بأبناء النبي الأكرم (ص) ، وتبدي حنانها تجاههم^(١) .

يتمثل « الإمام أمير المؤمنين » - عليه السلام - في إحدى
خطبه ، بشعر الشاعر الذي حلف بعمره ، ويقول ما يلي :

« لَعَمْرِ أْبَيْكَ الْخَيْرِ يَا عَمْرُو وَإِنِّي
عَلَى وَضْرٍ مِّنْ ذَا الْإِنَاءِ قَلِيلٌ »^(٢)

ليس هذا الإمام لوحده حلف بغير الله تعالى ، بل أن الخليفة
الأول يحلف في حديثه ؛ بأب مخاطبه ، قائلاً :

« إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ أَقْطَعَ الْيَدَ وَالرَّجْلَ قَدْ نَزَلَ عَلَى أَبِي
بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، فَشَكَا إِلَيْهِ أَنَّ عَامِلَ الْيَمَنِ قَدْ ظَلَمَهُ فَكَانَ يُصَلِّي مِنْ

(١) لقد تم مقارنة الأسانيد المذكورة مع « نهج البلاغة » ، محمد عبده ، طبع « مطبعة
الإستقامة » .

(٢) « نهج البلاغة » ، الخطبة ٢٥ .

اللَّيْلِ ، فَيَقُولُ أَبُو بَكْرٍ وَأَبِيكَ مَا لَيْلُكَ بَلِيلٍ سَارِقٍ . . . »^(١) .

يتضح من خلال مراجعة الأشعار التي بقيت منذ صدر الإسلام ، أن الحلف ببيت الله كان تماماً شائعاً في أوساط العرب .

يقول أبو طالب في قصيدته « اللامية » :

كَذَّبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ ، نَبِزِي مُحَمَّدًا
وَلَمَّا نَطَاعِنَ دُونَهُ وَنَنَاضِلَ^(٢)

لقد نقل عن الإبن الأكبر لـ « الحسين بن علي » - عليه السلام - يعني عن علي الأكبر ، أنه رَجَزَ في يوم عاشوراء رجزاً ، هذا مفاده :

أَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ
نَحْنُ وَبَيْتُ اللَّهِ أُولَىٰ بِالنَّبِيِّ^(٣)

ينقل « أحمد بن حنبل » في كتابه « المسند » عن « عائشة » ، أن المسروق قال لها :

« سَأَلْتُكَ بِحَقِّ هَذَا الْقَبْرِ ، مَا الَّذِي سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ فِي

(١) « الموطأ في الحديث أو موطأ الإمام مالك » مع شرح الزرقاني ، المجلد ٤ ، الصفحة ١٥٩ .

(٢) لقد نقلت في « سيرة ابن هشام » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٢٧٥ ، طبعة مصر ، مصطفى الحلبي ، وفي المجلد الأول ، الصفحة ٢٤٧ ، طبعة مكتبة الكليات - مصر ، وفي « المسند » لأحمد حنبل ، المجلد الثاني ، الصفحة ٢٠٢ ، والمجلد السادس ، الصفحة ٢١١ ، نقلت أحاديث عن الصحابة ، والتي تدل على شيوع هذا النوع من الألفاظ .

(٣) « النفس المهموم » ، الصفحة ١٦٤ .

حَقَّ الْخَوَارِجِ ؟ قَالَتْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : إِنَّهُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ ، وَيَقْتُلُهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ وَأَقْرَبُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَسِيلَةً ^(١) .

أن جملة « سألتك . . . » هي بدلاً عن جملة « أقسمت عليك بصاحب هذا القبر » . يستنتج من هذه الروايات والروايات الأخرى ، حيث أننا نتجنب نقلها بغية الاختصار ، يستنتج أن الحلف بغير الله كان شائعاً على ألسنة النبي الأكرم (ص) ، والإمام والشخصيات الجليلة في صدر الإسلام ، ولم يعتبره السلف الصالح منافياً للتوحيد أبداً .

أدلة الوهابيون في تحريم الحلف بغير الله تعالى :
أن محصلة أدلة هؤلاء تتلخص في حديثين اثنين . وسنوضح بدورنا ، بعون الله سبحانه وتعالى ، الهدف من هذين الحديثين ، وسوف نلاحظون أن هذين الحديثين ليسا دليلاً على وجهة نظر هؤلاء ، حتى ولو افترضنا صحتهما وصدورهما عن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - . بيد أنه يستوجب علينا ، قبل أن نقوم بتحليل هذين الحديثين ، أن نطلعكم على أقوال ووجهات نظر أئمة المذاهب الأربعة ، لأن ما يجمع عليه أصحاب هذه المذاهب الأربعة أو أغلب هؤلاء ، هو أن جواز الحلف بغير الله سبحانه ، دليل على أن لهذه الأحاديث أهداف أخرى ، لم تكن خافية وسيراً على أئمة هذه المذاهب ، وإلا فلا دليل لأن ينتخب جميع هؤلاء أو أغلبهم ، جواز الحلف ، آخذين بنظر الاعتبار الأحاديث موضع البحث .

(١) « المسند » لأحمد بن حنبل ، المجلد الخامس ، الصفحة ٣١ .

وسوف تلاحظون في هذا التحليل ، أن كتاب أراء المذاهب الأربعة ، بما فيهم أبو حنيفة والشافعي ، قد نقلوا الكراهية .

لقد نقل مؤلف « الفقه على المذاهب الأربعة » عن مالك بن أنس ، قولين اثنين ، ورَّجَحَ أن المعروف هو أن مالك بن أنس ، كان يعتبرها حراماً ، في حين أن القسطلاني نقل عن الإمام مالك ، الكراهية فقط .

لقد نقل في أغلب الكتب الفقهية ، التحريم عن أحمد بن حنبل ، في حين أن ابن قدامة نقل عن أحمد بن حنبل في « المغني » ، أن الحلف ينعقد بحق النبي الأكرم (ص) ، ونقضه يؤدي إلى الكفارة .

إن انعقاد اليمين وتعلق الكفارة ، رغم أنهما ليسا مرهونان بالحلال ، بيد أنه يُظهر غالباً ، كونه اعتبر هذا اليمين حلالاً ومحترماً .

وهاكم الفتاوى :

« لَا يَنْعَقِدُ الْيَمِينُ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى كَالْحَلْفِ بِالنَّبِيِّ وَالْكَعْبَةِ وَجَبْرِيلَ وَالْوَلِيِّ وَإِذَا قَصَدَ الْحَالِفُ بِذَلِكَ إِشْرَاكَ غَيْرِ اللَّهِ مَعَهُ فِي التَّعْظِيمِ ، كَانَ ذَلِكَ شِرْكَاً ، وَإِذَا قَصَدَ الْإِسْتِهَانَةَ بِالْحَلْفِ بِالنَّبِيِّ كُفْرٌ ، أَمَّا إِذَا لَمْ يَقْصِدْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ؛ بَلْ قَصَدَ الْيَمِينَ فِي حُكْمِهِ تَفْصِيلُ الْمَذَاهِبِ » :

الْحَنْفِيَّةُ قَالُوا : يَكْرَهُ الْحَلْفُ بِنَحْوِ أَبِيكَ وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

الشَّافِعِيَّةُ قَالُوا : يَكْرَهُ الْحَلْفُ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، إِذَا لَمْ يَقْصِدْ شَيْئاً مِمَّا ذُكِرَ .

المالكية قالوا : الحَلْفُ بِمَعْظَمِ كَالنَّبِيِّ والكعبةِ ونحوِهِما فيه قولان : الحُرْمَةُ والكِرَاهَةُ ، والمشهُورُ الحُرْمَةُ .

وكما تلاحظون ، فإن حلفاً كهذا مكروه في المذهبين الحنفي والشافعي ، أما في المذهب المالكي فهناك وجهتي نظر مختلفتين أشهرهما هو التحريم . ولم يعرف في هذا الصدد غير الحنابلة فقط ، الحلف بغير الله تعالى حرام وبشكل قاطع ، وهنا حيث يقول :
« يَحْرُمُ الْحَلْفُ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَلَوْ بِنَبِيِّ أَوْ وَلِيِّ »^(١) .

لنغض النظر عن أن جُلَّ هذه الفتاوي ، هو نوع من الاجتهاد ازاء نصوص القرآن وسنن نبي الاولياء الالهيين ، ولم يبق ، على اثر انسداد باب الاجتهاد لدى اهل السنة ، لعلمائهم المعاصرين بديلاً سوى الاقتداء بآراء هؤلاء .

لنغض النظر عن القسطلاني نقل في « ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري » قولاً بالكرامة عن مالك بن أنس ، يقول فيه :

« الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ الْكِرَاهَةُ وَعِنْدَ الْحَنَابِلَةِ التَّحْرِيمُ وَجُمْهُورُ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّهُ لِلتَّنْزِيهِ ، وَقَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ : الْمَذْهَبُ الْقَطْعُ بِالْكِرَاهَةِ وَقَالَ غَيْرُهُ بِالتَّفْصِيلِ ، فَإِنْ اعْتَقَدَ فِيهِ مِنَ التَّعْظِيمِ مَا يَعْتَقِدُهُ فِي اللَّهِ ، حَرَّمَ وَكَفَرَ بِذَلِكَ الْإِعْتِقَادَ ، وَإِنْ حَلَفَ لَاعْتِقَادِ تَعْظِيمِ الْمُحْلُوفِ بِهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ التَّعْظِيمِ فَلَا يَكْفُرُ »^(٢) .

(١) « الفقه على المذاهب الأربعة ، كتاب اليمين ، المجلد ١ ، الصفحة ٧٥ ، طبعة مصر .

(٢) « إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري » ، المجلد التاسع ، الصفحة ٣٥٨ .

لنغض النظر عن إنساب حَلَفٍ كهذا الى الحنابلة امرٌ مسلمٌ به ، لان ابى قدامة يكتب في « المغني » ، انه قد كتبه على اساس احياء الفقه ، قائلاً :

« وقال أصحابنا الحَلَفُ برسولِ الله (ص) يَمِينٌ مُوجِبَةٌ لِلْكَفَّارَةِ . رَوَى عَنْ أَحْمَدَ إِذَا حَلَفَ بِحَقِّ رَسُولِ اللَّهِ فَحَنَثَ فَعَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ ، قَالَ أَصْحَابُنَا لِأَنَّهُ أَحَدُ شَرْطَيِ الشَّهَادَةِ فَالْحَلَفُ بِهِ مُوجِبٌ لِلْكَفَّارَةِ كَالْحَلَفِ بِإِسْمِ اللَّهِ » (١) .

يتضح من خلال هذا النقل ، أنه لا يمكن القول ، إن إماماً من المذاهب الأربعة قدّم فتوى للتحريم ، وبشكل جازم .

ونشير في الختام ، إلى هذه النقطة :

أن علماء أهل السنة ، رغم اختلافهم على الحَلَفِ بغير الله تعالى ، وَمَعَ هذا فإنهم كُلُّهُمْ يجمعون على أن الحَلَفَ بالطلاق والعناق وكون الثروة صدقة ، شيء جائز ، ويعتقدون أنه إذا حَلَفَ شخص بطلاق المرأة وبتحرير العبد ، وبصدقة أمواله ، فسوف تُطَلَّقَ إمرأته وبتحرر عبده وأمواله صدقة ، دون الحاجة لإجراء الصيغة ، في حين أن جميع علماء الشيعة اقتداءً بأئمتهم الأسبقين ، يعتبرون حكماً كهذا باطلاً ودون أساس ، ويقولون أنه من أجل تحقيق الطلاق والعناق وصدقة الأموال ، لا مناص ، كالأموال الأخرى ، من أن تجري صيغة خاصة بذلك .

وبعد الإطلاع على آراء الوهابيين ووجهات نظرهم ، سندرس

(١) « المغني » ، المجلد ٩ ، الصفحة ٥١٧ .

الآن حديثان اتخذهما الروهايون ذريعة لأنفسهم ، وأريقت نتيجة هذان الحديثان الدماء وتم تكفير الملايين من المسلمين .

الحديث الأول :

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ سَمِعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَهُوَ يَقُولُ : وَأَبِي « فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ يَسْكُتْ » (١) .

توضيح فحوى الرواية :

إننا نضطر ، إذا أخذنا الآيات والروايات المتواترة والتي ذكر فيها

(١) أن المؤلف ينقل هذا الحديث من المجتمعات الحديثة ، أيضاً :

أ - « السنن لمحمد ابن ماجه » ، كتاب الكفارات ، المجلد ١ ، الصفحة ٢٧٧ ، طبعة عيسى البابي الحلبي .

ب - « السنن لعيسى بن محمد عيسى الترمذي » (٢٠٩ - ٢٩٧) المجلد ٤ ، الصفحة ١٠٩ ، الباب ٨ ، طبعة مصطفى البابي الحلبي .

ج - « السنن للنسائي » المجلد ٧ ، الصفحة ٤ - ٥ طبعة مصطفى البابي الحلبي .

د - « السنن الكبرى » للبيهقي ، المجلد ١٠ ، الصفحة ٢٩ .

إن ما يثير الإهتمام في هذا الحديث ، هو أن النبي الأكرم (ص) قال جملة واحدة فقط لنهي عمر عن الحلف بآبائه ، وهي عبارة عن الجملة التالية :

« إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ » .

وبالأحرى ، فإنه بين نهية بهذه الجملة فقط . نتمنى أن يضع القراء الأعزاء ، هذا الموضوع عالماً في أذهانهم ، لأن هذا الموضوع يستطيع أن يكون عوناً لإستيعاب الحديث الثاني .

الحلف بغير الله ، إلى أن نبرر فحوى هذه الرواية بشكلٍ من الأشكال .

التبرير الأول :

إن النهي عن الحلف بالأبء ، تأتي بسبب أن آبائهم كانوا في الغالب من المشركين وعباد الأوثان ، ولم يكن أشخاص كهؤلاء يتمتعون بقيمة وإحترام وقداسة ، لأن يحلف الإنسان بهم . ففي هذه الحالة يمكن لهذا الحديث أن يكون شاهداً على حالة واحدة فقط ، وذلك هو تحريم الحلف بالمشركين ، وإن استطعنا من توسيع فحوى ذلك ، فسوف نستطيع أن نقول ، كون هذا الحديث برهان على تحريم الحلف بأي كافر كان ، سواء كان مشركاً أم كافراً غير مشرك ، ولا يمكن الاستدلال منها على تحريم الحلف بالأولياء وجميع الأنبياء والأناس الشرفاء ، أبداً .

إن الدليل الواضح على هذا الموضوع ، هو أنه وردت في العديد من الأحاديث ، ألفاظ « الطواغيت » و« الأنداد » ملازمة للأبء ، كالتالي :

« لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا بِالطَّوَاعِيتِ »^(١) .

« لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ وَلَا بِالْأَنْدَادِ »^(٢) .

(١) « السنن الكبرى » ، المجلد ١٠ ، الصفحة ٢٩ - نقلاً عن صحيح المسلم ، والسنن للنسائي ، المجلد ٧ ، الصفحة ٧٧ ، و« السنن لابن ماجه » المجلد الأول ، الصفحة ٣٧٨ .

(٢) « السنن الكبرى » ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٩ - نقلاً عن السنن لأبي داود ، والسنن للنسائي ، المجلد ٧ ، الصفحة ٧ .

ولأن لفظة « الطواغيت » و« الأنداد » هي كناية عن أوثان العرب ، ووردت ملازمة لـ « الآباء » ، يمكن فهم الهدف من نهى كهذا .

لقد التفت ابن رُشد القرطبي في كتاب « بداية المجتهد » إلى هذا المفهوم ، وينقل ما ورد أدناه ، عن الذين يعتبرون الحلف بغير الله تعالى ، أمراً جائزاً :

« المقصود بالحديث ، هُوَ أَن لَا يُعْظَمَ مَنْ لَمْ يَعْظُمِ الشَّارِعُ ، بدليل قَوْلِهِ : إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَإِنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْخَاصِّ أُرِيدَ بِهِ الْعَامُّ ، أَجَازَ الْحَلْفَ بِكُلِّ مُعْظَمٍ فِي الشَّرْعِ »^(١) .

فكيف يمكن ، استناداً إلى هذه القرائن الواضحة ، القول أن النبي الأكرم (ص) قد نهى عن الحلف بمقدسات كالأولياء ، والرسُل الإلهيون ، في حين أن نهيه كان عن مورد خاص ؟

التبرير الثاني :

يمكن أن يقال ، أن نهى النبي الأكرم (ص) عن حلف كهذا ، كان « نهياً تنزيهياً » ، لأنه يجب وبأدلة الأحاديث السابقة في أن النبي كان يحلف بآباء المشركين ، يجب جعل النهي حملاً على الكراهة ، وتفسيره بذلك .

(١) « بداية المجتهد » ، المجلد الأول ، الصفحة ٣٩٤ .

التبرير الثالث :

إن المقصود بالنهاي عن الحلف بالأب ، هو الحلف بمقام الحكمية وفض النزاع ، لأنه وحسب إجماع علماء الإسلام ، فإنه لا يكفي أي حلف كان لفض النزاع ، إلا الحلف بالله تعالى وصفاته ، حيث له الإشارة على الذات .

إذن : سيكون نهى النبي الأكرم (ص) ، « نهياً إرشادياً » ، وليس مولوياً ، ولا هدفه توعية المسلمون في أن حلفاً كهذا لا ينعقد وليس لنقضه كفارة ولا يتم من خلاله فض النزاع .

لقد ورد هذا الموضوع بصراحة في أحاديث الشيعة . يقول « أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » - عليه السلام - :
« إذا قال الرجلُ : أقسمتُ أو أحلفتُ فَلَيْسَ بشيءٍ حتّى يَقُولَ أقسمتُ بالله أو حلفتُ بالله »^(١) .
وعلى هذا فإن هذه التبريرات الثلاث ، يمكن أن تزيل منافاة هذا الحديث بالأحاديث السابقة .

الحديث الثاني :

« جاء ابنُ عمر رجلٌ فقالَ : أُحلف بالكعبةِ قال لا ولكن أحلفُ برَبِّ الكعبة ، فإن عمرَ كانَ يحلفُ بأبيه فقالَ رسولُ الله (ص) لا تحلفُ بأبيك فإنَّ من حلفَ بغيرِ الله فقد أشركَ »^(٢) .

(١) « وسائل الشيعة » ، كتاب الإيمان ، المجلد ١٦ ، الصفحة ١٤٢ .

(٢) « السنن الكبرى » ، المجلد العاشر ، الصفحة ٢٩ . و« المسند لأحمد بن حنبل » =

الإجابة :

إستناداً إلى الأدلة السابقة التي تعتبر الحلف بغير الله تعالى ، جائزاً ، فلا مناص من تبرير هذا الحديث بشكلٍ ما ، وبالتالي :

لقد تألف هذا الحديث من ثلاثة أقسام :

١ - جاء ابن عمر رجلٌ فقال أحلف بالكعبة ، بيد أن الشخص المقابل منعه عن حلف كهذا .

٢ - كان عمر يحلف بأبيه (الخطاب) ، عند رسول الله (ص) ، فمنعه النبي الأكرم (ص) عن حلف كهذا ، وقال له ، فإنّ من حَلَفَ بغير الله فقد أشرك .

٣ - أن اجتهد ابن عمر قام بتوسيع كلام النبي الأكرم (ص) : (من حلف بغير الله فقد أشرك) الذي جاء بصدد الحلف بالمشرك (الخطاب) وحتى أنه اعتبر الحلف بالمقدسات كالكعبة أيضاً دخيلة في كلام الرسول الأكرم (ص) .

وفي هذا المضممار ، فإن القاسم المشترك بين هذه الرواية والروايات السابقة حيث كان الرسول الأكرم (ص) والآخرين يحلفون بغير الله تعالى ، بلا تحفظ ، هو أن كلام الرسول « من حَلَفَ بغير الله فقد أشرك » وقف على حالة يكون فيها « المقسم به » مشركاً ، وليس مُسْلِماً أو مقدساً كالقرآن الكريم ، والكعبة الشريفة ، والرسول الأكرم (ص) ، وإن اجتهد ابن عمر الذي فهم عن كلام النبي مفهوماً

= المجلد ١ ، الصفحة ٤٧ ، والمجلد ٢ ، الصفحة ٣٤ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ١٢٥ .
والسنن للبيهقي ، المجلد ١٠ ، الصفحة ٢٩ .

شاملاً ، فهو يشكّل بالنسبة له البرهان ، وليس للآخرين .

وأن سبب كون الحلف بـ « الأب المشرك » هو نوع من الشرك ، هو أن حلفاً كهذا ، هو في الظاهر مصداق لسبيل هؤلاء ونهجهم .

إن هذا أحد تفاسير الحديث ، وأساسه هو تخطئة اجتهاد ابن عمر ، الذي فهم من الحديث موضع البحث الذي جاء بصدد الحلف بالمشرك ، معنى شاملاً ، حتى أنه قام بتطبيق ذلك على المقدسات أيضاً .

وهنا يتبادر تفسير آخر ، حيث هو أكثر تجلياً ووضوحاً من التفسير الأول ، وإليك تبيان ذلك :

التفسير الثاني :

يتعلق حديث الرسول الأكرم (ص) عندما يقول : « مَنْ حَلَفَ بغير الله فقد أشرك » بالحلف بطواغيت أمثال « اللات والعزى » ، وليس الحلف بأب المشرك ، فكيف الحال وصولاً إلى الحلف بالمقدسات كالكعبة الشريفة ، وإن هذا هو (اجتهاد ابن عمر) الذي قام بتطبيق هذا القانون المتعلق بالأوثان . في حالتين (الحلف بالمشرك والحلف بالكعبة) ، وإلا فلم يكن لحديث الرسول الأكرم (ص) شمولية كهذه ، بدليل أن النبي يقول في حديث آخر :

« مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى ، فَلْيَقُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله »^(١) .

(١) « السنن » للنسائي ، المجلد ٧ ، الصفحة ٨ .

يستنتج من خلال هذا الحديث ، أنه كانت لم تزل رواسب فترة الجاهلية عالقة في أذهان المسلمين ، وإنهم كانوا ويدافع العادة القديمة ، يحلفون حتى بالطواغيت ، ومن أجل اجتثاث هذا العمل القبيح ، جاء الرسول الأكرم (ص) بتلك الجملة الكلية . بيد أن ابن عمر قام بتطبيقها على الحلف بالمقدسات ، وكذلك على الحلف بأب المشرك .

وإن الدليل على أن حديث الرسول الأكرم (ص) لم يكن مقروناً على الحلف بالمقدسات ، ولا على الحلف بالأب المشرك ، وأن هذا هو ابن عمر الذي قام بضم كلام رسول الله (ص) في موضعين ، حتى يحلف عمر بأبيه ، وأن هذا الدليل هو :

١ - ينقل إمام الحنابلة في المسند^(١)، ينقل الحديث الثاني بشكل يستنتج منه ، إن التطبيق كان من طرق ابن عمر . وهاكم نص الحديث :

« كَانَ يَحْلِفُ أَبِي ، فَنهَاهُ النَّبِيُّ ، قَالَ مَنْ حَلَفَ بِشَيْءٍ دُونَ اللَّهِ فَقَدْ اشْرَكَ . »

وكما تلاحظون ، فإن جملة « قال من حلف . . . » قد وردت بدون واو العطف (او الفاء) ، وإذا كان قد قال النبي هذا القانون في نهاية الحلف بالأب ، لاستوجب أن يكون حرف العطف متواجداً في الوسط .

(١) « المسند » لأحمد بن حنبل ، المجلد ٢ ، الصفحة ٣٤ .

٢ - ويعود مؤلف « المسند »^(١) لينقل في حديث « من حلف . . . » بدون رواية حلف عمر ، ويقول مايلي :

« مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ قَالَ فِيهِ قَوْلًا شَدِيدًا . »

واستناداً الى هذه المراحل ، يمكن القول ، أن اساس السهو يكمن في شيئين :

١ - لقد قام اجتهاد ابن عمر ، بتعميم القانون الكلي على الحلف بالمقدسات كالكعبة ، أيضاً . (التفسير الاول) .

٢ - لقد جمع حديثان إثنان في مكان واحد ، وجعل الحديث الذي هو اساساً متعلق بالحلف بالطواغيت ، مع حديث النهي عن الحلف بالأب ، جمعهما في مكان واحد ، وأضحى ذلك اساساً للالتباس . (التفسير الثاني) .

وبعبارة أخرى ، فقد قام بتطبيق حديث « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ » على الكعبة (وهذا إجتهد) ، وقام بجمع حديثين مستقلين ، معاً .

آراء أئمة الشيعة حول المسألة :

لا ريب في أن المسلمين منذ البداية وإلى يومنا هذا ، حلفوا بالأمور المقدسة وبالذين هم أعزاء مقربين إليهم ، ويجتلبون عبر طريق الحلف بالنبي والإمام وبالقرآن والكعبة ، دوماً قناعة المقابل على صدق كلامهم ، وإن عملاً بين المسلمين كهذا يدل على صحته ، وإن كان شيئاً كهذا حراماً ، لاستلزم النهي عنه .

(١) « المسند » لأحمد بن حنبل ، المجلد الثاني ، الصفحة ٦٧ .

لقد وردت هذه الأنواع من الأحلاف ويكثر في مباحثات أئمتنا مع أناس ذلك الوقت ، ننقل لكم منها بعض النماذج :

« ثامن الأئمة » - عليه السلام - يحلف لدى مباحثاته ، برسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - ، ويقربته برسول الله (ص) ، وببيت الله ، وبالمقابل^(١) .

« الإمام الجواد » - عليه السلام - يحلف بحياة المقابل^(٢) .

وفي مقابل ذلك ، هناك سلسلة من الروايات ، يجب تفسيرها قرينة للروايات السابقة .

مثلاً :

« كُلِّ يَمِينٍ بغيرِ الله فَيَهِي مِنْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ »^(٣) .

بيد أن المقصود من هذه الأحلاف ، هو ذلك القسم من الأحلاف الذي كان شائعاً في أوساط الناس في تلك الحقبة ، مثلاً إنهم كانوا يحلفون بالطلاق ، كما جرى تفسير ذلك في حديث هذه الجملة . يقول رجل لـ « الإمام الصادق » - عليه السلام - :

« إِنِّي أَحَلَفْتُ بِالطَّلَاقِ وَالْعِتَاقِ وَالنُّذُورِ »

فيقول الإمام - عليه السلام - في جوابه :

(١، ٢) « وسائل الشيعة » المجلد ١٦ ، كتاب الإيمان ، الباب ٣٠ ، الأحاديث ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٤ .

(٣) الرجوع إلى « وسائل الشيعة » ، المجلد ١٦ ، كتاب الإيمان ، الباب ١٥ ، الأحاديث ٤ ، ٥ ، ٦ ، وإلى المصدر السابق ، الباب ١٤ ، الحديث ٥ .

« إِنَّ هَذَا مِنْ خُطُواتِ الشَّيَاطِينِ » .

كلُّنا يعرف ، أن أحلافاً كهذه جائزة في مذهب أهل السُّنة ، وليست مشروعة في مذهب الشيعة ، ولا يمكن لأمرأة بحلفها بالطلاق ، أن تكون مطلَّقة ، بل يجب أن يتم ذلك ضمن شروط صيغة الطلاق .

لقد نُهي في العديد من الروايات ، عن الحلف بغير الله تعالى ، بيد أنه نهْيٌ مُحمَلٌ بالكراهية ، لأنه يعلل هكذا ، إنه إذا حلف بغير الله تعالى ، فسوف يتخلَّى عن الحلف بالله سبحانه^(١) ، وتحكي هذه التعابير عن الكراهة .

المقصود من النهي في العديد من الروايات ، هي الأحلاف التي تضع الإنسان في صورة الشرك ، كالحلف بالليل والنهار^(٢) .

نعم ، إن هناك حديثين فقط ، تعتبر أن يشكل مرسل ، الحلف بالإنسان وبِحياة الإنسان شركاً . وليس هذان الحديثان من باب إرسال الحجة ، أو محمولة على الكراهة .^(٣)

وفي ختام هذه الدراسة ، ننقل نص الفتوى لأحد فقهاء الشيعة المعاصرين ، وهو فقيه الشيعة الفذ ، المغفور له « آية الله العظمى الأصفهانى » - قدس سره - ، وذلك من كتاب « وسيلة النجاة » ، حيث يقول :

(١) المصدر السابق ، الباب ٣٠ ، الأحاديث ٤ ، ٥ .

(٢) المصدر السابق ، الأحاديث ١ ، ٣ ، ١٥ .

(٣) المصدر السابق ، كتاب الإيمان ، المجلد ١٦ ، الباب ٣٠ ، الأحاديث ١١ ، ١٢ .

« الأَقْوَى إِنَّهُ يَجُوزُ الْحَلْفُ بِغَيْرِ اللَّهِ وَإِنْ لَمْ يَتَرْتَّبْ عَلَى مَخَالَفَتِهَا
إِثْمٌ وَلَا كَفَّارَةٌ كَمَا إِنَّهُ لَيْسَ فَاصِلًا فِي الدَّعَاوَى وَالْمَرَاغَاتِ » (١) .

قم المقدسة - الحوزة العلمية

جعفر السبحاني

٣٠ شوال ١٣٩٧

تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٧ م .

(١) « وسيلة النجاة » ، كتاب الإيمان والنذور والتدويم ، الطبعة الثامنة ، الصفحة ٢٠٥ ، طبعة النجف الأشرف . للإستزادة يرجى الرجوع إلى كتاب « الجواهر » المجلد ٤٠ ، وكتاب القضاء ، الصفحة ٢٢٨ ، وكتاب « القضاء » للعلامة الأشتياني ، الصفحة ١٦٩ .

المحتويات

المقدمة	٥
القسم الأول : الإستعانة بأولياء الله تعالى	١١
الصورة الأولى	١٢
الصورة الثانية	١٣
الصورة الثالثة	١٣٣
الصورة الرابعة والخامسة	٢٩
موت الإنسان لا يعني فناءه	٣٠
١ - الآيات القرآنية تصرح على بقاء الأرواح	٣٢
٢ - القرآن الكريم وجواز الصلة بالأرواح	٣٥
أ - النبي صالح (ع) تحدّث إلى أرواح قومه	٣٦
ب - تحدّث النبي شعيب (ع) إلى أرواح قومه القدامى ..	٣٧
ج - يتحدّث رسول الإسلام مع أرواح الأنبياء	٣٨
د - سلام القرآن الكريم على الأنبياء	٣٨
هـ - تحية للنبي الأكرم (ص) في تشهده	٣٩
٣ - واقع الإنسان هو نفس روحه	٤٠

٤٤	وهاي بثوب تجوز التوسل
٥٠	٤ - المسلمون وابتغاء الحاجة من الأرواح المقدسة
٥٥	القسم الثاني : الشفُّعُ بالأولياء الإلهيين
٥٧	الأدلة على جواز الشفيع بأولياء تعالى
٥٩	أ - الشفيع شرك
٥٩	الإجابة
٦١	ب - كان شرك المشركين لتشفيعهم بالأوثان
٦٢	الإجابة
٦٢	ج - طلب الحاجة من غير الله حرام
٦٣	الإجابة
٦٣	د - الشفاعة هي حق خاص بالله تعالى
٦٤	الإجابة
٦٥	الخلاصة
٦٥	هـ - بطلان الشفيع بالميت
٦٥	و - يعتبر الله تعالى أن الأموات غير قابلين للتفهم
٦٦	الإجابة
٦٩	القسم الثالث : التوسُّل بالأنبياء والصالحين
٧٠	الدليل الأول
٧١	الإجابة
٧٦	العبادات هي أمور توفيقية
٧٦	الدليل الأول
٧٧	الدليل الثاني
٧٨	الإجابة

٨٤	 الدليل الثالث
٨٥	 الإجابة
٨٦	 نسج الأوهام بدلاً عن الواقعية
٨٧	 الإجابة
٩١	 الدليل الرابع أو حديث عن أبي حنيفة
٩١	 الإجابة
٩٣	 الدليل الخامس
٩٤	 الإجابة
٩٩	 الأدلة على جواز التوسُّل
٩٩	 الإستدلال بآيات القرآن الكريم
١٠٣	 ١ - الإستدلال بالقرآن الكريم
١٠٧	 ٢ - الإستدلال بسيرة المسلمين
	أ - التوسُّل بالعباس عمَّ الرسول الأكرم (ص) في مضامير
١٠٧	 مختلفة
١١٣	 الإجابة على مجموعة من التساؤلات
١١٤	 السؤال الأول
١١٦	 السؤال الثاني
١١٦	 الإجابة
١١٧	 السؤال الثالث
١١٧	 الجواب
١٢٠	 ب - توسُّل صفية إلى النبي الأكرم (ص)
١٢١	 الإجابة على السؤالين
١٢١	 الإجابة

١٢٢	٣ - الإستدلال بالأحاديث
١٢٢	الحديث الأول : حديث عثمان ابن حنيف
١٢٣	كلام عن سند الحديث
١٢٧	السؤال الأول
١٢٧	الإجابة
١٣٠	السؤال الثاني
١٣٠	الإجابة
١٣١	السؤال الثالث
١٣١	الإجابة
١٣١	السؤال الرابع
١٣٢	الإجابة
١٣٢	السؤال الخامس
١٣٣	الإجابة
١٣٤	الحديث الثاني : التوسُّل بحق السائلين
١٣٥	الحديث برهان على التوسُّل بصفة « المجيب »
١٣٦	الإجابة
١٣٧	إشكال في سند الحديث
١٣٧	الإجابة
	الحديث الثالث : يتوسَّل النبي آدم (ع) إلى النبي
١٤٢	الأكرم (ص)
١٤٣	وجهة نظرنا بصدد هذا الحديث
١٤٦	الإجابة على مجموعة من الأسئلة
١٤٧	وإليك دراسة هذه الأسئلة
١٤٧	الإشكال الأول

١٤٧	 الإجابة
١٤٩	 الإشكال الثاني
١٤٩	 الإجابة
١٥٠	 الإشكال الثالث
١٥١	 الإجابة
١٥٤	 الإشكال الرابع
١٥٤	 الإجابة
١٥٧	 الإشكال الخامس
١٥٧	 الإجابة
	الحديث الرابع : توُسِّل النبي الأكرم (ص) بالأنبياء
١٥٩	 السابقين
١٦٣	 الحديث الخامس
١٦٥	 متى كان استسقاء علي بن أبي طالب (ع)
١٦٦	 استسقاء عبد المطلب
١٦٧	 دراسة أحاديث الإستسقاء
١٧٢	 الإجابة على أحد الأسئلة
١٧٦	 الحديث السادس
١٧٩	 الحديث السابع
١٧٩	 الحديث الثامن
١٨١	 القسم الرابع : الحلف على الله بحق ومقام الأولياء
١٨١	 وإليكم دراسة الموضوع الأول
١٨٤	 الدليل الأول : إطلاق آيات العبادة والتضرع إلى الله
	الدليل الثاني : حدوث هذه الأنواع من التوسُّلات في
١٨٦	 الإسلام

١٨٩	الإعتراض الأول
١٨٩	الإجابة
١٩١	الإعتراض الثاني
١٩١	الإجابة
١٩٧	القسم الخامس : الحلف بغير الله تعالى
١٩٨	أدلتنا على جواز الحلف بغير الله
١٩٨	الدليل الأول
٢٠١	الدليل الثاني
٢٠٧	أدلة الوهابيون في تحريم الحلف بغير الله تعالى
٢٠٨	وهاكم الفتاوى
٢١١	الحديث الأول
٢١١	توضيح فحوى الرواية
٢١٢	التبرير الأول
٢١٣	التبرير الثاني
٢١٤	التبرير الثالث
٢١٤	الحديث الثاني
٢١٥	الإجابة
٢١٦	التفسير الثاني
٢١٨	آراء أئمة الشيعة حول المسألة
٣٢٣	المحتويات

